روايات عبير



مارغريت روم

اللمسات الحالمة

97

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 97

اللمسات الحالمة

هل صحيح ان هناك حباً من النظرة الأولى؟ تامي وقع قلبها صريع الهوى حين لمحت آدم الذي لم يعرها التفاتة. كانت جميلة وفاتنة وغنية لكنه اهملها، ولم يقل لها كلمة. وحين دبر والدها قضية زواجها من آدم، كانت متفائلة بأن الأيام ستجعله يخر عند قدميها طالباً عطفها وحبها، ولكن مارد الجبل ظل نائماً ولم يلتفت الى عروسه المحترقة بنار اللوعة. قال لها: بعد سنة تحصلين على الطلاق وتعودين الى حريتك. قالت له: احبك وسيتحطم قلبي اذا تخليت عني.

ومرت الأيام واقتربت السنة من نهايتها. فعلت تامي كل ما في وسعها لجذب اهتمام آدم وارضائه وشده اليها. قال لها: النسر لا يكون سعيداً الا متى حلق وحيداً في الفضاء الواسع. وتذكرت هي الحكمة القائلة: خلق الله الرجل وحيدا، ثم خلق له المرأة لتزيد من وحدته. زراعة طريق الحب بالورود تتطلب شهوراً، وتامي لم يعد امامها من سنة زواجها سوى يوم واحد. فهل يكفيها لتصل الى قلب آدم؟

لبنان ٧ ل.ل.	الكويت ٧٥٠ ف	اليمن ٩ ر	السودان ٨٠٠م
سورية ٨ ل.س.	الإمارات ١٠ د	تونس ١ د	U.K. £1
الأردن ٥٠٠ ف	البحرين ١ د	ليبيا ٧٠٠ د	France F 10
العراق	قطر ١٠ ر	المغرب ٨ د	Greece Drs 150
السعودية ٩ ر	عمان ١ ر	مصر ٨٠٠م	Cyprus P 1

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
ADAM'S RIB

المراسلات
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd. Bungay, Suffolk

١ - عمتها المتسلطة . . . ولقاء الفنان

وقفت تينا مانسون تتأمل ذلك الشاطىء الجميل وطيور النورس تحلق فوقه بهدوء وفرح. فالمكان مهجور في الشهر الأول من فصل الربيع، بعدما كان يعج بالعائلات التي تحضر معها مأكولاتها وتمضي النهار بكامله في السباحة واللعب والراحة. وابتسمت تينا بارتياح ظاهر لأنها تحب الشاطىء في وضعه الحالي، بعيداً عن الضجيج والفوضى واصوات السابحين والسابحات. انه يوم اجازتها الاسبوعية الذي تمضيه في الراحة والتأمل بعد عناء الاسبوع والجلوس عدة ساعات في اليوم وراء الآلة الكاتبة في احد مكاتب المحامين المحليين. هنا تستريح من ازعاج العمل ومن عمتها مود وذلك البيت القديم الموحش في شارع دولسي.

وما ان همت بالسير نحو الماء، حتى سمعت صوتاً يقول لها:
«قفي، ارجوك! لا تتحركي! قفي كما انت، تتأملين البحيرة
تحقيق احلامك سيتمّ على الجانب الآخر من هذا الافق الواسع».
نفذت الطلب بطريقة لا شعورية، مع ان دهشتها امتزجت بشيء
من الاهتمام وحب الاستطلاع. فهي لم تسمع من قبل صوت رجل
يوحي بمثل هذه القوة والنفوذ، مع انها تعرف تماماً ان الاصوات
تعكس دائماً الشخصية الحقيقية لأصحابها وقد تؤدي في كثير
الاحيان الى خيبة امل مريرة. غطت قسماً من وجهها خصلة
شعرها فلم تمد يداً لابعادها ولم تتحرك، لأنها احسّت بان الرجل
يرسمها. فمن عادة بعض الفنانين المجيء الى شاطىء تشورلي بين
الحين والآخر لرسم الجمال الطبيعي الذي يجذب عدداً كبيراً من
شبان لندن وشاباتها. وسمعت الرجل يقول:
«شكراً جزيلا لك. يمكنك ان ترتاحي الآن».
الاّ ان اعصاب تينا توترت بدلا من ان ترتاح، فليس من عادتها
ان تحادث اشخاصاً غرباء. واحست بان الرجل يقترب منها،
فنظرت بسرعة الى الوراء وراحت تتأمله بدقة وروية. رجل طويل
القامة، نحيف الجسم، منحته شمس الربيع لوناً برونزياً جذاباً.
شعره كث خطه الشيب الجميل في بعض ارجائه، ووجهه يدل على
انه سافر كثيراً وشاهد الكثير. فمه يوحي بالحزن والأسى
وبالسخرية التي قد تكون لاذعة ومؤذية. وابتسم فجأة فبدا اصغر
سناً واقل حزناً وسخرية، وقال:
«الكاريكاتور هديتي. انظري الى نفسك كما يراك شخص آخر.
فالمرايا تكذب، والكلمات لا تحمل لنا الا المعاني التي نريدها منها».
تأملت صورتها بتمعن ثم ضحكت وقالت:
«اني ممتنة جداً لأنك لم تقسَ عليّ كما يفعل رسام الكاريكاتور عادة
مع ضحيته».
«من النادر ان اقسو على الشباب والحيوانات».

الاعجاب السريع الذي كان عادة يتبع تقديم نفسها الى رجل لائق.
وما ان استقرت عيناه عليها حتى شعرت بالارض تميد تحت قدميها
واكتنفتها عاصفة من الأحاسيس، وشعرت وكأن رأسها في دوامة
جارفة.
حاولت ان تتمالك نفسها، وتخيّلت كيف ستضحك صديقاتها اذا
ان تصف لهن هذه التجربة المثيرة.
ومضة من البصيرة حملت اليها الحل لمشكلة شغلتها شهوراً
عديدة. لم تستطع تفسير تلكؤها في مجاراة رفيقاتها اللواتي يعتبرن
الانحلال الخلقي عنصراً ضرورياً في الحياة العصرية. ولكنها لم
تتمكن بعد من اقران القول بالفعل. كشابة متحررة، جاهرت
باصرار، بايمانها بحق المرأة بالحرية في كل شيء.
جاء رده كدفقة من الماء البارد. كان يمكن لحيوان قذر ان يسترعي
اهتمامه اكثر ممّا استرعته الفتاة ذات الشعر المعقوص بشكل قبعة
ناعمة، تتهدل فوق جبهة عريضة، وذات العينين العسليتين
الساحرتين، والانف الشامخ، والتي هي محط انظار معظم الرجال.
هذا الرجل ليس واحداً منهم.
قال باقتضاب:
«تشرفنا، آنسة ماكسويل، ادعى آدم فوكس، اذا كان والدك هو
ذلك ماكسويل فيكون هو من خاطبت هاتفياً في مطلع هذا المساء،
ودعاني للحضور في الثامنة والنصف».
ازاح طرف كم قميصه لينظر الى ساعته:
«تكرمي بارشادي اليه، وقتي ضيق».
«لماذا لا تبقى وتشاطرنا العشاء؟».
وارتسمت على شفتيها ابتسامة ماكرة ثم تابعت:
«انصحك بذلك ان شئت محادثة والدي في أمور تتعلّق بالعمل،
لأنه يكون اكثر ليناً بعد وجبة فاخرة. ولا تدع هذا الحشد يمنعك من
قبول دعوتي».

قالتها بطريقة اقرب الى التوسل واضافت:
«جاؤ وا لتناول المرطبات فقط، وبعد قليل يرحلون، ولن يكون الى المائدة سواي ووالدي، فاذا قررت مشاركتنا العشاء يمكننا تمضية السهرة في التعارف بعد ان تنجز عملك».
ومرة اخرى ارتفعت اليد وانحسر الكم ونظر الى ساعته:
«يجب ان استقل القطار بعد اقل من ساعة».
«وعد» قالتها بينها وبين نفسها وهي تسير به الى حيث كان جوك ماكوسيل يسرد مصاعب الحياة التجارية على جماعة من اترابه. واشرقت اسارير سامعيه عندما اقتربت تامي وفي اعقابها شاب مقطب الجبين.
«حفلة ممتعة يا عزيزتي، تبدين رائعة الجمال هذا المساء».
صدرت هذه العبارات عن رجل كهل.
ضاقت عينا جوك ماكسويل. وكان من البلاهة بحيث لم يدرك ان اللون الذي يكسو وجنتي ابنته مبعثه الانفعال، وقد لمحت عيناه الخبيرتان دموع الغيظ تترقرق في عينيها. رمق الشاب الذي يرافقها بنظرة تفيض فضولاً. ما من رجل في حياة ابنته الصاخبة استطاع ان يخترق قوقعتها العصرية الى حدّ ابكائها. انفرجت اساريره اعجا[باً] عندما قدمته تامي اليه.
«ابي، هذا السيد يقول انه على موعد معك».
«لا شك انك آدم فوكس».
قالها جوك باسماً:
«يؤسفني اضطراري الطلب اليك بحث أمور العمل خارج ساعات الدوام، ولكنك قلت ان وقتك ضيق فلم اجد مناصاً من ذلك. تفضل الى مكتبي فنتبادل الحديث دونما ازعاج».
وافق آدم فوكس على الدعوة بايماءة من رأسه وغادر القاعة في اعقاب جوك مخلفاً تامي وراءه يساورها شعور بكونها مهجورة في واحة تغص بأناس اشبه بالدمى. ولمدة عشر دقائق راحت تتجول بين

الحضور، وعيناها القلقتان عالقتان بباب مكتب والدها. وكم كان ارتياحها عظيماً عندما قام أول المدعوين مودعاً، وما هي الآ برهة حتى خلت القاعة الاّ من نفر ضئيل منهم. ونظرت الى الفوضى التي تعم القاعة واطلقت زفرة. كانت الحفلة ناجحة فلماذا ينتابها هذا الشعور بالقلق وعدم الرضى؟
كان ستيف هاريس آخر المغادرين فمدت اليه يدها مودعة الاّ ان نظراتها التائهة استرعت انتباهه.
«حفلة رائعة يا عزيزتي، ضمت العديد من الناس المثيرين للاهتمام».
قال ذلك وربّت على جيب سترته ثم اضاف:
«توفرت لديّ مواد تكفي زاويتي في الصحيفة لعدة ايام».
وبلهجة عادية سأل:
«من هو ذاك الشاب المتعجرف؟ هل هو طريدتك الجديدة؟ لا تكتمي الأمر عني. ثمة تفاهم بيننا، هل تذكرين؟».
هذه العبارات أثارت حذر تامي، يحاول ستيف اصطياد المواد للزاوية التي يحررها في احدى الصحف اليومية. كل صباح تلتهم مثيلاتها التعليقات التي يحررها عن المجتمع اللندني، وكانت في الماضي تسرّ اليه بمعلومات تجعله يجري كالملهوف لاستقصاء احدث الفضائح، اما الآن فانها تعتبر تدخله عدائياً.
وقالت ببرودة:
«انه احد معارف والدي في العمل، فلا تتماد معي لئلا تفقد مورداً رئيسياً لمعلوماتك».
«لا تلوميني على محاولتي، خاصة انك الوحيدة التي لم تكن مرة موضوعاً لاحدى مقالاتي، لانك لم تقترفي اية هفوة بعد».
نظر اليها ملياً وقال:
«يدهشني ذلك، فانت غارقة في الجو المتحرر، في فرنسا فيللا فخمة تحت تصرفك، وهنا في لندن تملكين هذا المنزل ويختاً دائم

الاستعداد للابحار، ولديك وقت فراغ غير محدود، والمال الوفير لتحقيق جميع رغباتك، ومغريات الوقوع في الخطأ كثيرة احياناً. اما ان تكوني مثالاً للفضيلة او انك شديدة التكتم!».

دفعت به عبر الباب للتخلص منه خشية ان ينفتح باب مكتب والدها ويضيع منها افضل رجل لاح في افق حياتها.

«حديثك يضاهي كتاباتك سخافة يا ستيف، الى اللقاء».

لم يكن ما يدعوها للخوف، اذ انقضى ما يناهز الساعة قامت خلالها بتنظيف القاعة وترتيبها وفتحت النوافذ لتنقية جوها من الدخان، ثم جلست على مقعد وثير متظاهرة بتصفح احدى المجلات، بينما كانت بالواقع تبذل جهداً فائقاً لكي تبدو رصينة. كاد صبرها ينفد عندما فتح الباب وعاد آدم فوكس ووالدها الى القاعة.

«تامي، هلا اعددت غرفة الضيوف؟ لم يكن آدم ينوي المبيت هنا، ولكن حديثنا طال وفاته القطار فأصريت على مبيته لدينا».

نظرت تامي الى والدها وقد تجدّد حبها لهذا الرجل المكتنز الذي يمكن الاعتماد عليه دائماً كحليف.

وقالت متلعثمة:

«بكل سرور، سأهتم بذلك حالاً».

بدت الحيرة على آدم فوكس، وبان الذهول في عينيه، غير ان صوته كان جارفاً:

«اكدت لوالدك انه لا داعي لازعاجك، بامكاني المبيت في احد الفنادق».

قال جوك برقة:

«هراء يا بني، انا من الشمال واقدر لك تردّدك في القبول بمنّة من احد، وارضاء لكرامتك سأطلب منك خدمة بالمقابل».

سارع آدم الى القول:

«ارجوك ان تفعل».

رسخ لدى جوك اعتقاده بانه يتعامل مع رجل حاد الطباع فقال

آدم:

«كنت بالغ الكرم وخاصة في ما يتعلق بالعمل، واذا كان من سبيل لاظهار امتناني...».

قال والابتسامة تداعب شفتيه:

«هنالك يا بني، بعد قليل سأضطر للخروج وهذا يعني بقاء هذه الصغيرة وحيدة معظم فترة الليل. هل تتكرم بالبقاء برفقتها، وفي هذه الاثناء تريك المناظر الخلابة هنا؟».

لاح الاستياء على محيا آدم فوكس، وما لبث ان زال بعد ان بذل جهداً كبيراً وقال باقتضاب:

«بكل سرور».

اثار استخفافه غيظ تامي وكادت تنفجر غضباً، الاّ انها كبتت غيظها واجتازت محنة تجاهل آدم فوكس لها وقد كان طوال فترة العشاء يوجه حديثه الى والدها مباشرة. امارات الغم الممزوج بالغيظ البادية على محياها اطربت جوك وبكل خبث راح يطيل تعذيبها بتشجيع آدم على الاسترسال في الحديث عن العمل، مما اضطرها للمشاركة في الحديث بعد عدة محاولات لتغيير الموضوع.

«هل تتعاطى الاعمال التي يتعاطاها والدي يا سيد فوكس؟».

نظرته اليها حملت الكثير من الدهشة، وكأنه كان يتوقع منها الالتزام بقيامها بواجبها كمضيفة فحسب. اجابها:

«ليس بالمعنى الصحيح، والدك يملك مصنعاً لغزل الصوف وحياكته، وانا امثل مجموعة من مربي الاغنام على الحدود، ويهمني ان ابيع الصوف. نربي الاغنام ونجزّ صوفها لنوفر المواد الاولية للاقمشة التي يحوكها ويبيعها والدك».

«هذا ممتع».

كانت نبرة صوتها كاذبة ... فتابعت:

«عندما رأيتك أدركت انك من محبي العمل في العراء».

اجاب موافقاً:

«اني فعلاً امضي اطول وقت ممكن في جبال كمبريان».

قالت مستفسرة:

«جبال كمبريان».

اجابها وكأنه يتساءل ان كانت هناك جبال سواها:

«على الحدود الانكلوسكوتلاندية».

انفرجت اسارير تامي، واخيراً وجدت قاسماً مشتركاً بينهما؟

«هل سمعت ذلك يا ابي؟ ربما كان اسلافنا جيراناً!».

ووجهت حديثها الى آدم بحماس:

«تنحدر عائلة والدي من اناتديل على حدود سكوتلاندا الجنوبية».

حتى جوك لاحظ ردّة فعل آدم لدى سماع هذا النبأ، وتساءل عن سبب ضغطه على شفتيه والحركات العصبية التي يقوم بها بقبضتيه. وللحظة خبا بريق عينيه كما يحدث عندما تمر غمامة عبر الشمس. وعندما انقشعت الغمامة كانت نظرة آدم اكثر اشراقاً وراحت تجوب ملامح جوك وكأنها تسبر غورها.

قال بعبوس:

«ربما كنا فعلاً جيراناً، اجد شبهاً كبيراً بينك وبين صورة معلقة في منزل احد جيراني وهي تمثل رجلاً يدعى جوك الاسود من اناتديل».

مال جوك الى الامام باهتمام قائلاً:

«كم اود ان اراها. انتقلت عائلتي الى هنا منذ جيلين عندما افتتحنا اول مصنع للنسيج، ولكن انهماكنا في تنمية اعمالنا شغلنا عن زيارة اقربائنا السكوتلانديين. كنت اجهل ان لي امثال هؤلاء الاقرباء. اظنهم كانوا مرموقين».

ثمة شيء في نظرة آدم الحادة افقدت ضحكته رونقها. فقال:

«كانوا معروفين جداً في ايامهم، ولا يزال اهالي الحدود يذكرون مآثرهم حتى يومنا هذا».

ارتعد كيان تامي. كان صوته مرتعشاً ويبدو ان ما سمعه سبب له

صدمة، والعبارة التي استعملها لوصف اسلافها كانت بعيدة عن الاطراء. كان بامكانه وصفهم بالبارزين او بالمشهورين، ولكنه اختار عبارة معروفين جداً. معروفين جداً بماذا؟ العديد من اللصوص والاوغاد كانوا معروفين جداً، وهذه الصفة يمكن ان تنطبق على القتلة ايضاً.

استبعدت تامي فكرة كونه نادماً على تعامله مع والدها. كان جوك ماكسويل شهماً عندما يخطىء احد الذين يعجبونه، ويبدو ان هذا الغريب المديد القامة قد حظي باعجابه، وهذا يفسر الرضى الذي لاحظته تامي عليه لدى دخوله القاعة. واذا كان الغريب يمثل مجموعة كما يقول، فهو لا يملك الحرية باتباع ميوله الشخصية، ولا يمكنه الانسحاب من الصفقة المعقودة حتى لو كان يتمنى ذلك، بل يحتم عليه الشرف وضع مصلحة مربي الاغنام فوق مشاعره الشخصية.

٢- جروة منبوذة!

خيّم جو من التوتر طوال فترة العشاء، حتى جوك قليل الملاحظة شعر بأن ضيفها غارق في افكاره، وتولاه ضيق شديد لأن آدم المنكمش على نفسه لم يظهر أي ميل لتلطيف الجو.

بعد العشاء تولاه مزيج من الشعور بالاطمئنان والفضول فأسرع ليترك الساحة لتامي. أسلوب الرجل الشمالي القليل الكلام كان بعيداً عن الاستهتار، ومع ذلك كان جوك في اعماقه شديد الثقة، وضع كنزاً ثميناً من المزايا الحميدة لمن يرغب في التنقيب عنه. ولكن هل كانت ابنته المدللة المتقلبة الاهواء تملك القوة الكافية والعزم الحقيقي اللازمين لاختراق قوقعة الرجل الصلبة؟ من الواضح انها وقعت في حبائله، ولهذا السبب أدهش الشاب باستعداده لشراء كل

ما لديه للبيع، وتعمد اطالة الحديث الى ما بعد موعد القطار. تعودت تامي منذ ولادتها ان تحصل على كل ما يمكن شراؤه بالمال، وبما ان آدم فوكس لم يكن برسم البيع فقد سلك هذا السبيل ليمهد الى المزيد من اللقاءات بينهما في المستقبل متيحاً لها الانفراد لبضع ساعات بالرجل الذي استهواها اكثر من أي رجل آخر

قال وهو يتجه نحو الباب:

«اتمنى لكما وقتاً ممتعاً، سأعود في حوالى الساعة الواحدة».

سيطرت على تامي أحاسيس شتى، فتهاوت على اريكة وثيرة وفرشت ثوبها حولها وخيل اليها انها تكاد ان يغمى عليها، ولكنها تمالكت نفسها وربتت على المكان المجاور لها وبابتسامة رقيقة دعته للجلوس قائلة:

«اجلس هنا، واخبرني بكل شيء عن نفسك يا سيد فوكس.

كلا، الا تعتقد ان اسم آدم افضل؟ والافضل ان تناديني باسم تامي».

لوّحت وجنتيها حمرة الخجل عندما تجاهل دعوتها واختار الجلوس قبالتها، تفصل بينهما سجادة كبيرة.

وبصوت رخيم قالت:

«ما الذي تنوي عمله، مشاهدة مسرحية أو ارتياد احد المقاهي أو التجول في المدينة والاستمتاع بمباهجها؟».

فأجاب:

«بالنسبة الي، لندن تفتقر الى المباهج، وأجد احراجاً في مشاهدة المسرحيات المعلن عنها، واعتبر المقاهي مثيرة للسأم، اما المباهج الحقيقية فأجدها في اوساط تختلف كلياً عن تلك التي ذكرت».

قاوت تامي سخطها وازداد انفها شموخاً، ولو كان المتكلم رجلاً سواه لأجابته بانه فظ لئيم، وكانت هاتان العبارتان تراودان لسانها وعلى اهبة الانطلاق الا ان وسامته لجمتها مرة اخرى، ووجدت نفسها غارقة في العينين الزرقاوين الخلابتين.

«لا شك ان هناك ما ترغب في عمله، الّا اذا كنت تفضّل تمضية لأمسية هنا».

تفوهت بهذه العبارات بوداعة فائقة.

سرعة نهوضه اعربت عن نبذه لتلك الفكرة.

«ارغب في تنشق الهواء الطلق. هل من منتزه قريب هنا؟ والاّ فبامكاننا المشي على ضفة النهر».

«المشي؟».

رددتها بصوت خافت. لم يسبق لحذائها الثمين ان لامس لطريق، ومع ذلك عندما اومأ ايجاباً هبت على قدميها واندفعت نحو غرفتها.

«يجب ان ارتدي ثياباً اكثر دفئاً، امهلني خمس دقائق».

راعها هذا الارتجاف في يديها وهي تخلع عنها ثوب السهرة الانيق، وراحت تبحث في خزانتها عن ملابس مناسبة للتجول في الشوارع في هذه الأمسية الباردة.

كانت خزانتها تغطي جداراً كاملا من غرفتها، وتغص بعشرات الاثواب الانيقة، وجميعها صممت للارتداء في الأوساط الراقية حيث تمضي تامي معظم اوقاتها.

ولكنها اشاحت عنها جميعاً، ثم تذكرت رحلة التزلج التي قامت بها في العام المنصرم والملابس الكثيرة التي ابتاعتها لتلك الرحلة، فاندفعت الى الطرف الاقصى للخزانة وفتحت بابها، بذلات وسترات وقمصان صوفية سميكة، كانت الخادمة قد كدستها تحت الاغطية القطنية، فتناولت اول بدلة وصلت اليها يدها وارتدتها.

توقفت امام المرآة لحظة قبل ان تهرول خارجة:

«لا بأس».

قالت ذلك مثنية على صورتها في المرآة وقد سرها ان البدلة ابرزت جمال قوامها وان قماشها الصوفي الزاهي اللون يتناسب وشعرها الكستنائي الناعم.

«وهذه البدلة ستلفت انتباهه اليّ حتماً».

قالت ذلك بحماس واستدارت على عقبيها يحدوها شوق لمعرفة تأثير جهودها عليه.

كان آدم فوكس ينتظر بفارغ الصبر، وقد امتدت يده الى الباب عندما اجتازت السجادة راكضة نحوه.

«خمس دقائق، كما وعدت».

وارتسمت على شفتيها الابتسامة الخلابه التي تحتفظ بها لوالدها، ولّما كانت تنتعل حذاء منخفض الكعب امالت برأسها الى الوراء لتنظر الى وجهه الذي لوحته الشمس وانتظرت بترقب، مشدودة الاعصاب، وعندما اجابها بدون اهتمام:

«هيا بنا».

شعرت وكأنها جروة قذرة منبوذة.

بعد ساعتين من الهرولة في الطرقات، في محاولة لمجاراة خطاه الواسعة، ادركت تامي ان الغاية من ذلك هي ارهاقها جسدياً.

وكان آدم فوكس بين الحين والآخر يلقي على محياها نظرة عابرة فيرى امارات الألم بادية عليه ويرتسم على شفتيه طيف ابتسامة شامتة.

في البداية، نبذت فكرة كونها ليست اهلاً له، ولكن كلّما كان غمّها يزداد حدّة ازدادت امارات الرضى وضوحاً على محياه مما جعلها تتميز غيظاً.

وجارته الخطى بكل عناد فيما تزاحمت الافكار في رأسها. لم تتعرّض في حياتها الى هذه المعاملة الخشنة وخاصة من الجنس الآخر. من البديهي انه كان يحتقرها ويحتقر الطبقة التي تنتمي اليها، وهذه هي طريقته الوضيعة في الاعراب عن ازدرائه، تمنعه عجرفته من مشاهدة مسرحية، ويترفع عن ارتياد المقاهي، ودقيق جداً في اختيار مرافقيه. كان آدم فوكس المتعجرف، المعادي للمجتمع بحاجة الى من يستفزه ليقلع عن هذه الصفات البغيضة، وكانت هي الكفيلة بذلك.

وحصل الاستفزاز بسهولة وبدون توقع.

توقف فجأة ليواجهها بقوله:

«في الواقع يا ابنة المجتمع المخملي، لأول مرة في حياتك تبذلين جهداً جسدياً، والواضح انك لا تجدين متعة في ذلك، هل استدعي سيارة اجرة تعيدك الى الشقة؟ بذلك تساهمين ولو قليلاً بعمل اجتماعي وهو مساعدة سائق السيارة على كسب عيشه».

هذا السيل من العبارات الجارحة جعلها تحبس انفاسها. ولمّا حاولت الكلام كان عقلها يعمل بالسرعة والدقة اللتين امتاز بهما والدها الذي شهد له الكثيرون بكونه يملك اذكى عقل تجاري في بريطانيا بأسرها.

كانا يجتازان احد الجسور عندما توقف فجأة، واخفاء لامتعاضها اتكأت على السياج وراحت تنظر الى تدفق المياه الداكنة.

«يؤسفني احتقارك لي، هل من عادتك الاستنتاج بسرعة؟».

«أكون اعمى وأصم اذا لم اعرف اي نوع من الناس انت، فراشة مجتمع، طفيلية، تأخذين ولا تعطين شيئاً بالمقابل. صحيح انك جميلة ولكنك تافهة، انانية، انت تشكلين خسارة تامة للجنس البشري».

«يا لسعة ادراكك!».

قالتها وفي حلقها غصة وقد تولاها غضب شديد من نفسها لأن عينيها اغرورقتا بالدموع. لماذا تبالي برأي هذا الحطاب المتخلف؟ انها فتاة مرغوبة ويتمناها عشرات الرجال الذين يفوقونه وسامة ولباقة، فلماذا انكمشت تحت لسعات ازدرائه لها؟ قالت له:

«أود ان أريك شيئاً قبل ان نعود الى الشقة، وأؤكد انه سوف يستهويك وهو ليس بعيداً. جارني في ذلك، ان لم يكن ارضاء لي فاكراماً لوالدي».

ذكرها لوالدها اصاب وتراً حساساً لديه. لا شك ان الصفقة المعقودة بينهما تضمن ربحاً كبيراً لجماعة مربي الاغنام ما دام ممثلهم

يبدي هذا العرفان الفائق بالجميل.

فقال باستخفاف:

«سيري امامي».

كتمت تامي فرحتها بهذا الانتصار وسارت به نحو سلم ينحدر صوب النهر حيث اصطفت اعداد كبيرة من الزوارق الصغيرة، وسار خلفها يدفعه الفضول، وعندما توقفت مشيرة الى زورق فخم جميل، ارتفع حاجباه دهشة وتبعها الى متن الزورق من دون ان يفوه بكلمة، ثم هبطا سلماً الى المطبخ فأشارت بيدها الى المساحة الصغيرة وقالت:

«هلاّ اعددت لنا الشاي بينما اذهب لاقتراض زجاجة من الحليب؟».

قالت ذلك وقفلت راجعة الى سطح الزورق بدون ان تنتظر رداً منه، وتركته يبحث بفضول في المساحة الضيقة التي تحتوي على طاولة الى كل جانب منها مقعد وثير يمكن تحويله الى سرير، وعلى مطبخ حسن التجهيز بخزائن حافلة بالمواد الغذائية.

وعادت بعد نصف ساعة تحمل نصف زجاجة من الحليب، وكان آدم فوكس قد اعد ابريقاً من الشاي ووضع فنجانين على المائدة.

«يدهشني اعتبارك للذهاب ضرورياً، الخزانة تغص بالحليب المعلب».

تولى تامي الحياء وسارعت الى القول:

«افضل الحليب الطازج، فالحليب المعلب يفسد نكهة الشاي».

شعرت بالارتياح عندما تقبل تفسيرها:

«اعتقد ان هذا الزورق هو ألعوبة اخرى اشتراها والد متساهل».

«انه ليس ألعوبة، بل احبه وامضي ساعات طويلة اجوب به النهر».

«بمفردك؟».

«غالباً».

«تدهشينني، لم يخطر لي انك تحبين الوحدة».

«ولكنك لا تعرف عني الّا القليل، واستنتاجاتك مبنية على آراء وهمية، لا على معرفتك الشخصية».

تجاهل قصدها.

«الزوارق تنتشل من الماء في الشتاء عندما لا تكون قيد الاستعمال ويجب حمايتها من الطقس بقدر الامكان».

«اعلم ذلك، ولكنني استعمله على مدار السنة وليس فقط في الصيف، واقوم باعمال كثيرة لصيانته، ثمة خبير يكشف عليه بين الحين والآخر، وانا اقوم برأب الشقوق وطلائه بنفسي».

نظرة عدم التصديق التي بدرت منه كانت مثيرة للغضب فهبت على قدميها تاركة فنجان الشاي على المائدة، وصعدت الى سطح الزورق. شعرت بموجة من السرور تسري في شرايينها عندما ادارت المحرك وراح صوته يتردد في مسامعها. وبلطف فائق ابتعدت بالزورق عن المرسى المزدحم آخذة بعين الاعتبار ان اي احتكاك بزورق قد يقذف بوجبة الطعام ارضاً. وعندما تأكدت ان ممرها خال انطلقت بالزورق الى عرض البحر.

وما هي الّا ثوان حتى لحق بها كما كانت تتوقع.

«ما الذي تفعلينه؟».

تعالى صوته فوق ضجيج المحرك.

«البحر ليس مكاناً للمبتدئين».

وبسرعة التفت يميناً ويساراً متفحصاً الانوار على الجانبين، وبذلك كشف عن معرفته لقوانين البحار مما أثار حمية تامي.

«لا تقلق، فقد درست التقويم البحري، وجدول المد والجزر ونظام العوم ولذا يمكنك الاطمئنان معي».

كان سبر غور الظلام تسلية خطرة بينما كان الزورق القوي ينطلق تحت توجيه يديها الماهرتين. لا وجود آدم فوكس المحترق غيظاً ولا شتائمه التي كانت تصفع مسامعها، استطاعت القضاء على شعورها بالقوة وبسيطرتها التامة على هذا الرجل المتصلّب.

كانت تتوقع موقفاً ظريفاً عندما تبدر من المحرك اولى اشاراته بالتوقف، وكان عليها ان تبذل جهداً فائقاً لابعاد رنة الشماتة عن صوتها وهي تجيب على سؤاله:

«ما الأمر؟».

بقولها:

«لست ادري، لم ادرس فن الميكانيك البحري».

«يا الهي!».

كان تصلّبه ليناً اذا قورن بنبرة صوته الغاضبة، وفي تلك اللحظة توقف المحرك كلياً، مخلفاً وراءه صمتاً رهيباً.

«ما الذي حدث في رأيك؟

سألته بوداعة وهي تتسلل من جانبه مبتعدة عن قامته الضخمة.

فأجاب متجهماً:

«جهاز ادارة المحرك او الضغط او الوقود، اني اشكر الله لكوننا بعيدين عن الخط الرئيسي لمرور السفن! ولكن على سبيل الاحتياط راقبي جيداً بينما اكشف على المحرك».

هزت تامي كتفيها حابسة ضحكة راودتها، بينما راحت تراقبه وهو يكشف على المحرك، وعندما اقتنع بانه غير معطل حول اهتمامه الى جهاز الضغط وكآخر سهم في جعبته حل انبوب الوقود.

تشنجت وهي تتوقع ان ينفجر غاضباً، ولكن عندما استدار ليواجهها كان صوته هادئاً الى حد لا يمكن تصديقه.

«نفد الوقود. . . الخزان فارغ».

«آه، يا لحماقتي!».

كان ارتجاف صوتها حقيقياً لا تصنع فيه.

«لا بأس، سنضطر الى المبيت على متن الزورق وفي الصباح نجد من يقطره لنا».

خيّم صمت طويل مشحون بالترقب، وراحت تتململ باضطراب، واخذت تتساءل عن الافكار التي تتزاحم وراء عبوسه،

بالعبارات اللاذعة التي ستنطلق من فمه. وبجهد استطاع السيطرة على نفسه وجعل رده عبارة مقتضبة:

«اهبطي انت، سأمضي الليلة على سطح الزورق».

واعترضت قائلة:

«ولكن البرد شديد».

«اهبطي يا آنسة ماكسويل».

«سأفعل، ولكن لا تلمني اذا انهمر المطر عليك».

أمضت الساعات مستلقية على الاريكة مصغية الى وقع خطاه على سطح الزورق. ولما لاحت تباشير الفجر راحت تشجع نفسها على مواجهته، ولكنها رأت أن أفضل وسيلة لتهدئة الوحش الثائر هي اعداد افطار شهي له.

وسريعاً ما عبق الجو برائحة الطعام المؤلف من البيض واللحم، وكالمغنطيس اجتذبت اهتمام الرجل الكليل العينين فهرع الى المطبخ وطوق فنجان القهوة الساخن بأصابعه المتجعدة. نظرة واحدة الى عينيه الزرقاوين المنغلقتين انبأتها بان الوقت غير مناسب لتقديم الاعتذار، وبدون ان تفوه بكلمة وضعت امامه صحناً حافلاً بالطعام، وانتظرت بصمت الى ان التهم كل محتوياته.

«ايها القوم».

وصلها هذا النداء بوضوح عبر المياه. وتقابلت عيونهما ثم قفز آدم مندفعاً الى سطح الزورق ولحقت هي به. كان ثمة زورق دورية نهرية بمحاذاة زورقهما.

«هل انتما في مأزق؟».

انطلق هذا السؤال من مكبر للصوت.

وأجاب آدم:

«يلزمنا من يقطر لنا الزورق، هلاّ اسديتم الينا هذا الجميل؟».

وكان الجواب:

«بكل تأكيد، سنرسيكم بأسرع ما يمكن».

بعد ساعة بر طاقم الزورق بوعده واعادهما الى مرساهما سالمين، ولوحا بأيديهما للطاقم شاكرين مودعين. تقبل الرجال قول آدم ان الوقود قد نفد منهما ساخرين، ولحسن حظ تامي كانت عبارات السخرية معدودة، ولكن بينما كان منقذوهما يرحلون شعرت بأنّ صبر آدم قد نفد.

وبينما كانا يترجلان الى الشاطىء، ثمة ساعة اعلنت الخامسة. تمتم قائلاً:

«سنكون محظوظين اذا وجدنا سيارة اجرة في هذه الساعة المبكرة. استعدي لمسيرة طويلة للعودة الى الشقة».

لأول مرة منذ ساعات نظر مباشرة الى محياها الرصين. ردّت اليه النظرة بأخرى جريئة وقد ندمت على تسرعها. خوفها من الانتقام منعها من الاقرار بان ما حدث لم يتعد كونه مزاحاً.

ومضة من النور بهرت عينيها، ولاول وهلة عزت ذلك الى تأثير آدم على مشاعرها، وعندما أدار رأسه تبعت عيناها الاتجاه الذي تركزت عليه نظراته المنفعلة.

لوح ستيف هاريس بآلة التصوير وعلى شفتيه ابتسامة عريضة.

«صورة اخرى على سبيل الاحتياط!».

وابتسم ثانية قبل ان تلتقط الآلة صورة ثانية لهما وهما في حالة الذهول الشديد!

٣- حرب بين قلبين

نادراً ما كانت تامي تشارك والدها طعام الافطار، ولذا بدت عليه الدهشة عندما رآها تجلس في المقعد المجاور له. لم يكن للسهر اي اثر على محياها باستثناء تعب طفيف في عينيها، زال عندما جالت ببصرها في محياه الهادىء. كان من الواضح انه يجهل ما جرى في الليلة المنصرمة.

تأكد لها ذلك من تحيته:

«طاب صباحك، هل امضيت سهرة ممتعة؟ أنا آسف لعودتي متأخراً اذ حدث ما اخرني».

ارتسمت على شفتيها ابتسامة غامضة. سيئة والدها الوحيدة، اذا جاز التعبير، هي حبه للعب الورق حتى مطلع الفجر، وليس في هذا

ما يضير، الاّ انه يأبى الاقرار بذلك.

«لا بأس يا ابي، انا ايضاً تأخرت بالعودة».

وقبل ان تباشر بتفسير ذلك اطلق ضحكة العالم بالأمور قائلاً:

«لا تكوني ابنة ابيك اذا لم تنتهزي الفرصة التي هيأتها لك. ذلك الشاب يعجبك، اليس كذلك؟».

قال ذلك ضاحكا وراح يدهن قطعة خبز بالزبدة واضاف:

«لأول مرة اوافق على اختيارك، ولذلك خرجت عن المألوف لأوفر له صفقة جيدة. كما تعلمين، اترك أمور المشتريات الى الموظفين المقتدرين، ولكنني في هذه الصفقة قبلت بالخسارة، ليس بدافع العطف على الشاب الذي توسل كثيراً بالنيابة عن شركائه طلباً لسعر افضل من ذلك السائد في السوق، بل لثقتي من انه بعد عقد الصفقة سيضطر للعمل بجميع اقتراحاتي. والآن، اخبريني، هل نجحت خطتي؟

قالها وهو يقضم قطعة الخبز:

«هذا ما اود محادثتك فيه يا ابي».

وراحت تامي تداعب منديلها بعصبية ظاهرة، لأول مرة في حياتها لم تكن واثقة من ردة الفعل لدى والدها. كانت على وشك الابتداء بالشرح عندما قوطعت للمرة الثانية برنين جرس الباب. وترددت، غير راغبة في استئناف الحديث قبل ان يوليها والدها كل انتباهه.

انتظرا بصمت الى ان ادخلت الخادمة الزائر، ثم نظرا بدهشة عندما دخل آدم فوكس الغرفة بخطى ثابتة تحدوه رغبة فائقة في الاسراع بالرحيل.

«آدم! كنت اظنك لا تزال نائماً!»

«كلا، اكون عادة قد انجزت نصف اعمالي اليومية في مثل هذه الساعة. ذهبت الى المحطة للاستفسار عن مواعيد القطارات، هناك قطار ينطلق بعد ساعتين وذلك يناسبني تماماً».

جوك، الذي يعرف طباع ابنته جيداً نظر اليها وتساءل عن سبب

اهتمامها المفاجىء بمحتويات صحنها. ليس من عادتها ان تتحاشى نظرة احد. ولاحظ ان آدم لم يرمقها بنظرة واحدة، وبدا ان رغبته في الرحيل تتعدّى كل تهذيب. ولمّا شعر بأن وجوده غير مرغوب فيه تأبط الصحيفة وغادر المائدة. انه لا يفهم اساليب شباب اليوم، يسرهم ان يظهروا غير ما يبطنون.

«سأراك قبل رحيلك».

قالها وهو يتجه نحو غرفة الجلوس ساخطاً لسوء استغلال تجاهله.

عندما اصبح آدم وتامي وحدهما اخذا يتبادلان النظرات، يسيطر على آدم الجفاء والبرود. وتامي يأكلها الارتباك والاحراج.

«هل يعلم؟».

وتحركت عضلة في وجه آدم.

«يعلم ماذا؟».

حاولت كسب الوقت وكان يعرف ذلك.

صرخة غضب مفاجئة من غرفة الجلوس اكدت لتامي ما كانت تخشاه.

«اصبح يعرف».

قالت هامسة واعدت نفسها للمجابهة التي لا مفر منها.

بدت على آدم دهشة مثيرة للضحك عندما اندفع جوك الى الغرفة وهو يصرخ غاضباً وملوّحاً بالصحيفة، وكادت تامي ان تنفجر ضاحكة.

«ما معنى هذا؟».

ولوّح جوك بالصحيفة امام عيني آدم:

«اريد تفسيراً... اريد تبريراً مقنعاً».

كان آدم يستعد للردّ واذا بعينيه تقعان على صورة تمثل رجلا وفتاة يبدو عليهما التعب والشعور بالذنب، وتحت الصورة ملاحظة لاذعة تقول: «ماذا سيقول الوالد؟».

وتحت ذلك وبحروف اصغر حجماً كتب ستيف كلاماً حافلا

بالسخرية. الجملتان اللتان لمحتها تامي من فوق كتف آدم كانتا كافيتين لتفسير امتقاع لونه: «ابنة المجتمع المخملي تمضي الليل على امواج البحر، الآنسة ماكسويل تقع اسيرة شاب فاتن من الشمال. هل تصدقون ان عذرهما هو نفاد الوقود من زورقهما؟».

«تباً له».

وعصر آدم الصحيفة بقبضتيه القويتين:

«سوف ادق عنق ذلك الصحافي اللعين!».

اطلق جوك زفرة حارة وقال:

«هلا ابديت لي عذراً يمنعني من دق عنقك؟».

حملق به آدم وقال:

«انك حتماً لا تصدق هذه السخافات».

صرخ جوك غاضباً:

«لا يهم ان صدقت او لا، السؤال هو كم من اصدقائنا سيصدقون ذلك؟ الحقت العار بابنتي ولوثت سمعتي وسنكون محور احاديث اهالي لندن. اود ان اعلم بما تنوي عمله حيال ذلك».

استعادت تامي الجرأة على الكلام، واندفعت تبدي الايضاح الذي تأجل مرتين:

«حقاً يا ابي، لا لوم على آدم، بل يقع الذنب عليّ. انا اخرجت الزورق ولم اتأكد من كمية وقوده فكانت النتيجة ان توقفنا لبضع ساعات الى ان قطرتنا دورية الى الشاطىء في الصباح الباكر. وقد امضى آدم الليل على سطح الزورق ونمت انا تحت».

لم يبد على جوك اي لين وزأر صارخاً:

«انا اصدقك، ولكن هل يصدق الناس ذلك؟».

وتدخّل آدم بكلمات تفيض احتقاراً:

«وهل تبالي بتصرفات بعض الاغبياء؟».

«اني والله ابالي».

قالها جوك حانقاً.

«في الجبال المعزولة تجد مناعة ضد الألسن الثرثارة، اما نحن فنعايشهم يومياً. في الاشهر القليلة ستكون قد نسيت هذا الحادث، بينما اكون وتامي هدفاً للانتقادات اللاذعة والنظرات الحافلة بالمعاني. ألحقت العار بابنتي. في الايام الغابرة كان عمل كهذا يثير العداء المستحكم».

اعربت تامي عن عدم تصديقها بقولها:

«كم هذا سخيف يا ابي».

استدار جوك نحوها وهو يرتجف غضباً وأمرها قائلا:

«اذهبي الى غرفتك. لي حديث مع هذا الشاب».

القت تامي نظرة على والدها. كانت قد رأته يصبّ غضبه على الآخرين، ولكنها لم تكن مرة هدفاً له. شدّة غضبه كانت مخيفة، ولاحظت العروق تبرز في صدغيه وتوشك ان تنفجر. كان يتنفس بصعوبة واحتقن وجهه بلون داكن مخيف.

توسلت اليه وقد اعترتها رهبة مفاجئة:

«يجب ان تهدأ يا ابي!».

نبرتها المهادنة لم تزده الاّ انفعالاً، وبغضب هائل لوح بذراعيه باتجاه غرفتها مصراً على تنفيذها لأمره. وقفت مترددة ونظرت الى آدم الذي اومأ برأسه فأذعنت وتوجهت متمهلة الى غرفتها.

جلست في غرفتها لمدة ربع ساعة تصغي الى صوت والدها الغاضب والى اجوبة آدم الهادئة. كان يتكلم بنبرة معتدلة، مزيلا تدريجياً الحدة من نبرة والدها.

اما الآن وقد اتيح لها التفكير بنتائج تصرفها الارعن شعرت بتأنيب الضمير. لم تتوقع ان تسبب كل هذا العذاب لوالدها. منذ طفولتها وهي موضوع محبة والدها، ولو كان والد سواه لكانت موضع كراهيته. لم تكن المرة الاولى التي تحن فيها تامي الى حكمة والدتها ومؤاساتها. دللها جوك الى درجة مشينة ضارباً بتحذيرات الاصدقاء عرض الحائط، مدّعياً ان تصرفات ابنته المعوجة سيصلحها الادراك

السليم الذي ورثته عن والدتها وهي سيدة فاضلة من يوركشاير اعتمد جوك عليها كلياً طوال العشرين عاماً من زواجهما.

مولد تامي وضع خاتمة لزواج قام على مدى السنين على المحبة والثقة. الطفلة التي طالما توسلاها جاءت متأخرة جداً في حياتهما، وتسببت بتضحية والدتها بحياتها من اجلها.

اغرورقت عينا تامي بالدموع وهي تفكر بالمحبة الفائضة التي لقيتها طوال حياتها. وتلطيفاً لعذابه من جراء خسارته، صبّ جوك كل طاقته على تنمية اعماله وانهالت ثمار ذلك عليها وهي لا تستحقها. كيف ردّت اليه الجميل؟ بعمل طائش واحد خانت ثقته وزعزعت ايمانه واسكتت الى الابد مباهاته بان تامي لم تسبب له لحظة من الهم منذ ولادتها.

قرع على الباب وصوت آمر انتشلاها من افكارها القاتمة:

«ارجوك ان تخرجي يا آنسة ماكسويل، يرغب والدك في التحدث اليك».

طار قلبها استجابة لنداء آدم واسرعت الى الباب تفتحه، كان يقف على العتبة بقامته المديدة وشفتيه المزمومتين ونظرت الى حيث يجلس والدها يرشف المرطبات.

«هل انت بخير يا ابي؟».

وجرت لتجثو عند قدميه وترى بعينيها الخائفتين الامتقاع الغريب الذي يكتنف محياه.

ابتسم جاهداً وكانت في صوته رنة يشوبها الامل وهو يشير نحو آدم قائلا:

«شرح لي آدم الامر يا عزيزتي ويجب ان اعتذر لكما على ما بدر مني».

«آدم شرح الأمر؟».

ردّدتها بحذر والتفتت اليه تستقرىء محياه الرصين الهادىء.

«لا افهم لماذا وجدتما صعوبة في اطلاعي على حقيقة

مشاعركما...».

قال جوك متذمراً:

«قد يهزأ البعض بنظرية الحب من النظرة الاولى. اخبرتك مرات عديدة عن لقائي بوالدتك. حين رأيتها ادركت انها الفتاة الوحيدة التي اريدها زوجة لي».

ومد يده يربت بها على رأس تامي:

«واجل، تلك الساعات الاولى من اكتشاف الامر قد تتحكم بتفكير المرء وتطرد كل ما عداها من خواطر. اذكر لقاءنا الاول جيداً، كنا في حفلة وتطوّعت ان احمل اليها بعض المثلجات وكانت تقف في احدى زوايا القاعة وحيدة مرتبكة، يسيطر عليها الحياء. وعندما رجعت اكتشفت ان الحياء يلجم لساني، التقت عيوننا ووقفنا صامتين يسبر احدنا غور الآخر الى ان ارتطم احدهم بذراعي فانسكبت المثلجات على مقدمة ثوبها».

ألم الذكرى عقد لسانه وبدا لها انه يشيح امام عينيها الخائفتين. ثم نفض عنه تلك الذكريات الاليمة وبشيء من حيويته المعهودة خاطب آدم:

«الوقت مناسب الآن لأعمل بنصيحتك. اشعر بالتعب، لذلك سأنام قليلاً واتركك يا آدم لتنتهز الفرصة التي كنت تتحين. لا اشك في ما سيكون ردّها».

نظرت تامي الى آدم وهي تكاد لا تشعر بمغادرة والدها للغرفة. كان آدم يسير في الغرفة بخطوات رجل اعتاد السير مسافات طويلة على الاعشاب الخضراء والاريج يفوح من ازهار المروج الشاسعة المحيطة به. بدا في هذه الغرفة وكأنه في قفص او كثعلب تحاصره كلاب الصيد.

عندما توقف أمامها فجأة انكمشت على نفسها تحت نظرة الكراهية التي صوبها كسهم استقر في قلبها قاطعاً خيطاً دقيقاً من الأمل في استمالته اليها مع مرور الزمن.

«لا بدّ من الزواج».

انطلقت هذه العبارة وكأنها تنسلخ عن حنجرته قسراً.

هزتها الصدمة.

«أحقاً؟».

همست محاولة كسب الوقت لامعان النظر في أحاسيسها المتضاربة بين الفرحة الكبرى التي طارت من بين يديها واليأس القاتل المتمثل بطلبه المشحون بالضغينة. اشياء كثيرة استرعت اهتمامها في الماضي، ولكن علمها ان والدها سيحقّق رغبتها لدى ادنى اشارة منها افقدها متعة الامتلاك، اذ لم يعد يستهويها شيء، ولم تكن لأثمن الماسات او افخر الفراء اية قيمة اكثر من كونها نزوة عابرة... حتى الآن. انها تحنّ الى آدم حنين الارض العطشى الى الماء. حنين المزروعات الى الشمس. حنين الجائع الى كسرة الخبز. تحن اليه حنين الرضيع الى امه وحنين اليتيم الى الحنان. كانت عيناها تعدانه بالوفاء مدى الحياة.

انقض صوته الأجش على آمالها كالسوط مخلفاً وراءه اثره الذي لا يندمل:

«تدركين ولا شك انه السبيل الوحيد لاراحة بال والدك، لا اظنك تبالين كثيراً بالتقاليد، ولا شك ان شهامتي الرجعية توفر لك تسلية كبرى، ولكن الفضيحة سريعة الانتشار وتبلغ جبال كمبريا ومن واجبي ايضاً الحفاظ على سمعة عائلتي. منذ عصور طويلة واسم فوكس رديف للعدالة والشرف والمبادىء السامية، ولا اريد ان اكون اول المسيئين الى هذا الاسم. فكّري بصالح سواك ولو لمرة واحدة في حياتك بدلاً من التفكير بنفسك. يجب ان توافقي على هذا الزواج فانت تدينين لوالدك بذلك».

وابدت شيئاً من المعارضة:

«ولكنك لا تحبني يا آدم».

فقاطعها بدون رحمة:

«هذا صحيح، ليس ذلك فحسب، بل ايضاً شخصيتانا واخلاقنا ومركزنا الاجتماعي وحتى وضعنا المالي تتعارض كلياً، لذلك لا يمكن القول ان احدنا مناسب للآخر».

راحت تجادله بعناد:

«وحتى عندما يجتمع شخصان مناسبان ليس هنالك ما يضمن ان ومضة بريق ستشعل نار الحب».

أزعجه اصرارها على ترديد النغمة التي تحرجه.

«حتى العلماء يجدون صعوبة في تحديد مواصفات الحب، وغالباً ما يختلط بمشاعر النزوات المحرمة او الشفقة أو التمني الصادرة عن رغبة في الانتماء الى انسان ما او امتلاكه. فكيف يمكن الجزم بماهية الحب؟».

قالت والغصة في حلقها:

«ستدرك ذلك عندما تتذوق طعم الحب، وترتعش لدى رؤية الحبيب، وتتأثر لدى سماع صوت معين، وعندما توقف حياتك كلها على شخص واحد».

تجاهل حديثها وبادرها بالقول:

«دعك من هذه السخافات. ثمة قاسم مشترك يجمع بيننا وهو اننا واقعيان مع الأخذ بعين الاعتبار آراءك العصرية، لا تستائي اذا ذكرتك بان الزواج لم يعد في هذه الايام حكماً بالاستعباد. بعد عام او ربما قبل ذلك. نلمح لوالدك بأننا لسنا على وفاق وبذلك يتهيأ تدريجياً لفكرة الطلاق ولن يكون انفصالنا الفعلي صدمة له».

تفكيره السقيم أثار اشمئزازها. لا يمكن ان تخون حساسية مشاعرها اياً كان الدافع او السبب.

«شكراً لعرضك الزواج، هذه الفكرة لا تروقني».

قالتها وهي تندفع مغادرة الغرفة.

وما ان بلغت الباب حتى شعرت بقبضة تمسك بكتفها وتمزق بشرتها. ادارها آدم ثم تركها ووقف مكتوف اليدين يرمقها بنظرة

ثابتة.

«ستصبحين زوجتي طوعاً او قسراً. لك ان تختاري. اما اذا قررت مقاومتي فتذكري اني لن اكون اول رجل من آل فوكس يأخذ امرأة من آل ماكسويل عنوة».

كان ذلك فوق احتمال تامي.

«لا اعلم كم امرأة من آل ماكسويل عرفت في حياتك، اني من النوع الصعب، والرجل الذي يمتلكني سيفعل ذلك وفقاً لشروطي ومشيئتي لا لشروطه ومشيئته».

لاحت ومضة حائرة في عينيه:

«تشتهر نساء آل ماكسويل بحدتهن، ولكن التاريخ اثبت كونهن سريعات التأثر بالقبضة الفولاذية».

أثار فضولها فقالت:

«هل تتكلم بدافع من الخبرة؟».

«بل بدافع اسطورة تكررت مدى الحياة. كلانا ينحدر من عائلتين حدوديتين خاضتا ولمدى اجيال، اطول قتال واشده بين جماعات غزاة الحدود. كان ذلك في حوالى القرن الثالث عشر عندما كانت قبائل الحدود الانكليزية والسكوتلاندية تقتتل باستمرار. وكان البلدان في تلك الآونة في حالة سلم بينما كانت الحدود تسودها اللصوصية والابتزاز والغزو والحرائق والخطف. كان ذلك اسلوباً مقبولاً في الحياة الاجتماعية. كانت الارض على الجانبين تنقسم الى مناطق حدودية، ثلاث سكوتلاندية وثلاث انكليزية ولم يكن بوسع المقيم على احد جانبي هذا الخط الوهمي ان يسير اعزل فيكون بمأمن. كانت البيوت تقفل من الداخل بالمزاليج وتقام الحراسة كل ليلة خوفاً من اللصوص المتسللين عبر الحدود لسرقة المواشي ومهاجمة اعدائهم وسبي نسائهم اذا سنحت لهم الفرصة».

شجعته تامي على الاسترسال في الحديث وهي حائرة بين الاعجاب وعدم التصديق.

«وتقول ان عائلتينا كانتا على الجانبين المتناقضين؟».

«بالتأكيد. كانت عائلة ماكسويل اقوى قبائل سكوتلاندا الغربية. لصوص اوغاد يدنسون كل ما تطاله ايديهم، كانوا لطخة عار في تاريخ منطقة الحدود. وكانت عائلتي تنتمي الى القبائل الانكليزية الغربية، ويشتهر اسلافي في انحاء كمبريا بسجلهم الحافل في خدمة التاج كجنود عاديين وكضباط حدود، واقر بانه سرت شائعة ذات مرة مفادها انهم كانوا يستغلون مناصبهم للتستر على غزواتهم، ولكنني اؤكد ان الشائعة كان مصدرها جيرانهم آل ماكسويل».

فقالت بامتعاض:

«لا شك في ذلك، اذ يصعب التصور ان ينحط شخص مثلك الى ذلك المستوى».

آلمها تقبله لكلامها على عواهنه، اما متعمداً او بدون وعي منه، متجاهلاً تهكمها. وبعصبية ظاهرة راحت تدرس السليل الغامض لقبيلة غير اعتيادية. فظ، متحفظ، يحتقر المواطنين الذين لا ينحدرون من سلالة قوم عاشوا بقوة السيف وحافظوا على الحدود التي كانت مسرحاً للغزو والسرقة والقتال المرير، اطرافه الهزيلة ورثها عن رجال اشداء لهم قلوب الاسود، يستعملون سلاحهم بمهارة فائقة.. هالة كبرياء تحيط برأسه المتعجرف وبأنفه المستقيم وبفمه الذي لا يعرف الابتسام، واهداب كثة تحيط بالعينين الحادتين الشبيهتين بعيني مقاتل مقدام. عدو عنيد يبحث عن خصمه، عينا رجل من آل فوكس تزنان قيمة فتاة من آل ماكسويل.

الزواج من رجل كهذا يعني حياة من النضال المرير. ارادتها ضد ارادته، متطلباتها ضد رفضه، روحها المتوحشة تثور على حقه المقدس في السيطرة. قد تنبعث حروب اللصوص مجدداً بعد اجيال. آل فوكس ضد آل ماكسويل. الجرح بالجرح. سلب الارادات يستمر حتى الموت بدون اخذ او عطاء.

ومع ذلك تنهال الغنائم على المنتصر.

ثمة شك راح يزعجها:

هل تملك الجرأة؟ هل تملك عزيمة وبأس اسلافها؟

٤- الحب بهجة مشتركة

كانت سيارة تامي تنهب الارض نهباً يقودها آدم، بينما جلست هي بجانبه تغمرها سعادة فائقة والشمس تتسلل من النافذة لتستقر على الخاتم الذهبي الذي يزيّن اصبعها. خاتم براق كالأمل المشرق في قلبها. حتى الغيوم التي اخذت تتلبّد في الأفق عجزت عن اخماد جذوة تفاؤلها الذي يرفض الفكرة القائلة ان هناك أمنية تعصاها.

تحققت اغلى امنياتها اذ اصبحت زوجة آدم، منذ سبع ساعات اصبحت السيدة آدم فوكس، من فوكس هول، كمبريا! وانتفض كل عرق في جسدها وهي تتذوق فرحة العروس التي ينقلها عريسها الى دارها الجديدة.

ألقت عليه نظرة ملية وهي تقاوم غثياناً تولاها لبرهة، بينما كان

عقلها الباطني يقارن بين ملامح وجهه الوسيم والالوان القاتمة الأرض التي يجتازان.

منذ ساعة خلّفا وراءهما ما كانت تعتبره آخر معقل للمدنية وعدد الابنية يتضاءل تدريجياً لتحل التلال محلها. اخذت الطريق تتجه صعوداً والتلال التي بدت كتلاً رمادية في الأفق ما هي الا صخور صوانية شاهقة تطل بعبوس وازدراء على الطريق الشبيهة بسيف يخترق عزلتها.

وتبين لها ان البقع الصغيرة التي كانت تتحرك احياناً ما هي سوى خراف ترعى فوق هضاب شديدة الانحدار، ترويها شلالات صغيرة، وتقسمها مربعات من الجدران الحجرية المنخفضة تمتد من قاعدة الجبل حتى قمته. دفعها الفضول الى قطع حبل الصمت الذي لازمها طوال فترة الرحلة تقريباً فقالت:

«لماذا كان من الضروري اقامة جدران على طول الجبل وعرضه؟».

«ماذا؟».

كان رده اشبه بالاستنكار لقطعها حبل افكاره. ولكنه عندما استوعب السؤال ابتسم، وفي تلك اللحظة تبددت الغيوم واكتست الجبال بثوب من خيوط الشمس الذهبية.

«ميزة هذه الجبال هي تلك الجدران الحجرية التي لا مبرر لوجودها. غالباً ما يتساءل الاغراب عن فائدة تلك الجدران التي لا تحتوي شيئاً والمتعرجة في الأفق تحيط بالغابات. وللأسف، معلوماتنا عنها ضئيلة، ولكننا اصبحنا نعتقد انها نوع من الحدود. سياجات بين المزارع، بين رعية وقطاع، فواصل بين القصور وعامة الشعب. ثبت انه منذ حوالي الألف عام أقام النساك أول هذه الجدران. كانوا مزارعين ماهرين وهم اول من صنع مجاري المياه وزرع الارض هنا».

قالت بدهشة ظاهرة:

«هل تعني ان عمر هذه الجدران ألف عام؟».
فأجاب مؤكداً:
«عمر بعضها الف عام، والبعض الآخر اقيم منذ حوالى القرن، وفي ايامنا هذه ومع ان صناعة الجدران لم تنقرض، لا تقوم جدران جديدة على الجبال الشاهقة. وبالطبع، يقوم المزارعون بصيانة الجدران القائمة ويبنون زرائب للخراف. بحسب الحاجة، الاّ ان عدداً ضئيلا منهم يفكر باقامة سياج حجري جديد على قمم الجبال».
انفرجت اسارير تامي تحت دفء ابتسامته المشرقة. سلوكه هذا شجعها على القول:
«اني جائعة، هل يمكننا التوقف في مكان ما لتناول الطعام؟».
عادت السماء وتلبّدت بالغيوم فحجبت نور الشمس، قال عابساً:
«تأخرت ما فيه الكفاية، ساعة ونكون في البيت وأؤكد انك تستطيعين الصمود».
ابتلعت رده الجاف. منذ ثلاثة ايام وهو يردد هذه المعزوفة، مبدياً ضيقه لكل دقيقة يضطر لتمضيتها في لندن للقيام بترتيبات الزواج. حفلة الزفاف التي تمت في مكتب مسجل العقود تحت اصرار آدم، عمتها الفوضى اذ تمت بطريقة سريعة خالية من الرومانطيقية. ولولا والدها لما كان هنالك افطار العرس ولا صورة تحتفظ بها كأجمل ذكرى لأهم يوم في حياتها. كان جوك قد نشر خلسة، في افضل صحف المدينة، نبأ زفاف ابنته بعبارات منمّقة ليخلق انطباعاً بأن الزواج كان متفقاً عليه، وبذلك وضع حداً للأقاويل واظهر ستيف هاريس بمظهر المتجني.
وجدت ذاتها تعترض قائلة:
«ثلاثة ايام ليست هي العمر كله، الا يمكن الاستغناء عنك لقضاء بضعة ايام بمثابة شهر العسل؟ الا مدير اعمال لديك؟».

لم يعد يعرها آدم التفاتة بل اطلق للسيارة العنان فاندفعت بسرعة فائقة وقال:
«شهر العسل هو للمحبين ونحن لسنا منهم، ولا مدير اعمال لدي، بل لي عمتان مسنتان تساعداني بقدر الامكان، وكما تقول العمة فيفي عين الكهولة بصيرة ويدها قصيرة».
سبق ان سمعته يتحدث عن عمته ولكن ليس باسهاب:
«كم تبلغا من العمر؟ قامتا بتربيتك على ما اظن».
ايماءة رأسه اشعرتها بانها تتدخل في امور شخصية:
«انتقلتا للاقامة معنا فور وفاة والدتي بعد مولدي بعامين، وكانتا لا تزالان معنا عندما توفي والدي منذ خمس سنوات واصبح منزلي مقرهما. ولكونهما لا اقرباء لهما سواي، فقد باعتا منزلهما واتخذتا من فوكس هول مقراً دائماً لهما».
واضاف متشدداً:
«اياك ان تسيئي الى شعورهما بالاطمئنان اثناء اقامتك القصيرة معنا».
فطمأنته بحماس:
«لا انوي الاساءة الى العجوزين العزيزتين».
بدا وكأنه يختنق ثم تنحنح وقال:
«الحديث عن السن محرم. مع انهما تميلان للعيش في ذكريات الماضي فانهما لن تشكراك على قولك انهما هرمتان».
انحرفا عن الطريق الرئيسية عند مفترق يحمل لافتة تقول كارليسل وبدلاً من ان يكملا السير نحو البلدة الرئيسية في الاقليم فقد سلكا مخرجاً عند مستديرة تؤدي الى منطقة زراعية مارين بمزارع منعزلة وقرى مرتبة. وبعد مسيرة ساعة بالسيارة اخذت الطريق تتجه صعوداً الى ان اوقف آدم السيارة على قمة شاهقة ليتيح لتامي القاء نظرة ملية على المناظر الخلابة المنتشرة تحتها والمحيطة بأبراج ومداخن المدينة الواقعة الى اقصى يمينها، ومساحات شاسعة من الجبال

الكثيبة الى يسارها وشاطىء سولواي امامها مباشرة وخيط رفيع من البحر الفاصل بين الجارين الانكليزي والسكوتلاندي.

بحث في جيبه عن غليونه وقال:

«اقتربنا، عندما نجتاز القرية نصبح عند عتبة دارنا».

«القرية؟».

سألت وهي تسلخ بصرها عن خيط البحر الرفيع متسائلة ما اذا كان عميقاً وبارداً وغير قابل للعبور كالخليج القائم بينها وبين آدم.

«كالديك مسقط رأس جون بيل صياد الثعالب الشهير. سمعت الاغنية ولا شك».

راحت تردد الاغنية:

«بالطبع، اتعرفون جون بيل بمعطفه الزاهي...».

فقال مصححاً:

«بمعطفه الرمادي. كان يرتدي معطفاً رمادياً بأزرار نحاسية، ويشتهر بخطاه الرشيقة وعينيه الرماديتين الجذابتين القادرتين على النظر الى الابد».

«كعينيك تماماً».

قالتها بينها وبين نفسها وتاهت في أعماق عينيه الزرقاوين غير مدركة ان الحنين واضح على محياها وثغرها المرتعش وفي عينيها الصافيتين، تتوسل نظرة تشجيع واحدة منه. وتخلت عن تحفظها. بالنسبة اليها، الحب بهجة مشتركة وهي سخية معطاءة، فدنت منه والقت برأسها على كتفه وقالت له بلطف:

«آدم، انقضى نصف نهار على زواجنا ولم تعانقني بعد».

شعرت بكتفه ينتفض بوحشية وأبعدها عنه الى اقصى ما يمكن.

«أنسيت اننا تزوجنا لنسكت الألسنة الثرثارة؟ لا ولن اشعر بميل نحوك، ولكنني سأتحملك علماً لشعوري باني مدين لوالدك، وأشك في كونك ذات شخصية عميقة ومقدرة كافية لتحمل تعب الحياة هنا ولو لهذه الفترة القصيرة، وانا مقتنع بانك ستهرولين عائدة الى لندن

بأسرع ما يمكن وهذا ما اتمناه، واثناء اقامتك هنا تذكري اني امقت الألاعيب النسائية. نشأ الرجال هنا ليكونوا صيادين، تحرشات الامرأة تثير ريبهم ويعتبرونها مرفوضة، وهذا الشعور يساورهم لدى رؤية ثعلبة تستدرج كلاب الصيد الى جحرها».

مشهد الخراف تجوب الحقول الممتدة على ضفة النهر لم يخفف عن تامي ما عانته من ألم الصد طوال ما تبقى من الرحلة. كان آدم ينطلق بالسيارة بأقصى سرعة عبر حقول مهجورة الا من قطعان ترعى. شمس خجولة حاولت الاشراق على قمة متجهمة فاخمدتها غمامة تلبدت حول تلك القمة المكسوة بالثلوج. بعد مسيرة ساعة بالسيارة ابتدأت تامي تزداد فهماً. لا يمكن ان تكون في جزيرتهم المزدحمة بالسكان اميال شاسعة من الارض العراء الخالية من السكان الادميين يخيم عليها سكون يتردد فيه الصدى كرنين الجرس.

لطالما تبرمت في لندن من ازدحام الملايين الذي يجعل الجو خانقاً، وكانت كلما شعرت بالضيق تلجأ الى الزورق وتقوم بنزهة بحرية تروح بها عن نفسها. وهنا يتوفر لها الوحدة والسكون اللذان طالما حنت اليهما. فلماذا يتولاها الخوف؟ لماذا تشعر بانها تجردت من بريق الحياة العصرية الزائف وتنحني باستسلام امام كيان عظيم غير منظور؟

«وصلنا».

رنة الارتياح في صوت آدم انتشلتها من تيه إفكارها وهزت كيانها. كانت السيارة تجتاز طريقاً وعرة تؤدي الى بيت ضخم يقوم على جانبيه برجان اضفيا عليه شكل الحصون القديمة، يكسو الطحلب الاخضر سطحه القرميدي، وبابه الخشبي الضخم مشرع للريح الشمالية الباردة.

ارتعدت تامي وهي تغادر السيارة فأسرعت والتقطت معطفها الصوفي السميك الملقى على المقعد الخلفي.

تنشق آدم الهواء بنهم ظاهر وقال:

«ستجدين ان معطفين لا يكفيان لمكافحة البرد في الشمال. لا تدعي الشمس تخدعك. سوف يتساقط الثلج الليلة على الجبال الشاهقة».

وصدقته، الريح الشمالية كتمت لها انفاسها. وفيما كانت تسير الى جانبه مترنحة على حذاء عالي الكعبين، وتتساءل ما اذا كان عليها ان تعرض عليه المساعدة في نقل الامتعة، اذ بصرخة ابتهاج جعلتها تلتفت بسرعة بحيث كادت تفقد توازنها.

«آدم! ولدي العزيز».

«اسرعي يا فيني، وصل آدم».

«عمتي هونورا».

ترك آدم الحقائب وطوق بذراعيه امرأة نحيلة كانت قد جرت نحوه.

لم يتغيب سوى ثلاثة ايام! اذهل تامي هذا الترحيب الحار، وبينما هي واقفة تشاهد ذلك، مرت بها امرأة طويلة بارزة العظام مسرعة لكي تفصل الامرأة الضئيلة عن آدم الذي لا تزال تطوق عنقه بذراعيها. وكان من الواضح انها تنوي المطالبة بحصتها من الاهتمام.

«قلت انك ستتغيب يوما واحداً فقط».

قالت الطويلة بعد ان طبعت قبلة حارة على وجنته.

«لا يحق لمن هو مسؤول عن الفي نعجة وثلاث مئة كبش والعديد من الماشية ان يتغيب ثلاثة ايام كاملة».

شكل آدم الخجول فتن تامي. كان يتململ مرتبكاً كتلميذ اهمل واجباته:

«انا آسف يا عمتي فيني، اخرتني مصيبة لم استطع تحاشيها».

تولى تامي حياء ساخط، اطلق الناس عليها شتى النعوت في حياتها الا نعت «مصيبة» فاخذت تضرب الارض بحذائها بعصبية. لم يولها احد اي اهتمام وكأنها غير مرئية فأطلقت سعالاً حاداً جعل

جميع العيون تتجه نحوها.

قال آدم بصوت اشبه بالصراخ:

«عمتي فيني، عمتي هونور، هذه تامي... زوجتي».

«زوجتك!».

انطلق صوتان في آن واحد، احدهما مرتفع منفعل والآخر اجش مستاء، وبدت عليهما دهشة فائقة.

قدمهما اليها بحسب درجة اهمية كل منهما:

«تامي، هذه عمتي لافينيا وندعوها فيني».

رمقتها العجوز بنظرة ملية.

«وعمتي هونوريا وندعوها هونور».

اشرقت اسارير العجوز الثانية.

عسل وخل! وارتسمت على شفتي تامي ابتسامة ساخرة ثم راحت توبخ نفسها لتسرعها في تكوين الرأي. وازدادت ابتسامتها اتساعاً عندما تقدمت العمة هونور عارضة وجنتها:

«يسرني يا عزيزتي ان يكون آدم قد وجد اخيراً عروساً شابة جميلة».

زمجرت الريح عندما حان دور العمة فيني في الكلام. اخذت عيناها الناقدتان تجولان في قوام تامي وتلكأتا عند قدميها، وقد بدا عليها الذهول من الانوثة المناقضة للحذاء العالي الكعبين:

«احقاً تستطيعين المشي بهذا الحذاء المضحك؟».

قالتها وقد تجعدت شفتها العليا.

غاص قلب تامي، يبدو ان هذه المخلوقة النحيلة، الحادة التقاطيع، الجارحة النظرات، قررت الاّ تحبها، بخلاف اختها الموردة الوجنتين.

شمخت تامي بانفها وقالت:

«بالطبع».

ومشت الى الأمام على صخرة حادة الاطراف فتعثرت ولو لم تمتد

يد آدم اليها بسرعة لسقطت ارضاً.

اطلقت العمة فيني آهة اوقدت شعلة الخجل في وجنتي تامي.

واردفت العمة هونور قائلة:

«ارجو الا يكون قد اصابك مكروه. ادخلي الى البيت وارمي كاحلك، عظام كاحليك رقيقة بحيث لا تتحمل طرقاتنا الوعرة».

عندما اصبحت تامي في القاعة الكبرى شعرت وكأنها عادت قرناً الى الوراء. ستائر مزركشة طمس الزمان الوانها تتدلى على جدران حجرية رمادية اللون. رايات بالية ترفرف في الهواء المتدفق من المدخل المفتوح، والقماش الحريري المهترىء جعلها تحبس انفاسها خشية ان يتهاوى ويتفتت. ابواق صيد نحاسية طويلة تتدلى بانحراف بين لوحتين زيتيتين داكنتي الالوان، دنت منها لترى فيهما فرساناً على صهوات جيادهم وفي ايديهم اكواب قدمتها لهم خادمات بشوشات، وكلاب للصيد نفد صبرها فراحت تنبح. درج عليه ثروة من المنحوتات الجميلة يمتد الى ارتفاع مجهول من ارض كست بعض جوانبها اصناف متنوعة من جلود الحيوانات.

اما غرفة الجلوس التي اقتادوها اليها فتختلف كلياً عن القاعة، اختلاف شخصيتي الأختين. الطبقة اللماعة على المفروشات، الطاولات القديمة، والمقاعد الفاخرة المصطفة الى جدار زاهي اللون استغرقت ساعات طويلة من العناية، الستائر الزاهية تتماوج على النوافذ المطلة على المناظر البديعة للجبال، وموقد ضخم فيه نار مستعرة ينتشر منها الدخان واللهب وتلتهم الحطب الزكي الرائحة. سجادة تحمل جميع الوان الخريف زادت من دفء الغرفة ووفرت الراحة والاطمئنان لكلب صغير يربض امام المدفأة المكشوفة.

ألقت العمة فيني نظرة حادة عليه وصرخت:

«هونور، كم مرة يجب ان أمنعك من ادخال الكلاب الى البيت؟».

«البرد شديد في الخارج وهو لا يزال جرواً».

«اخرجيه».

امرتها العمة فيني وكتفت ذراعيها وكأنها تستعد لخوض معركة.

ثارت ثائرة تامي. يبدو انه ساءها وصول آدم وبصحبته عروس مجهوله فقررت صب جام غضبها على الكلب المسكين.

«أليس جميلاً؟».

وجثت الى جانب الكلب النائم ذي الشعر الفضي الحريري، الطويل الاذنين والقوائم وغير مكتنز الجلد:

«يا للصغير الجميل، ابق معي هنا».

فردت العمة فيني بحزم:

«لن يبقى».

كاد ارتطام الكلام ان يكون مسموعاً. ثم انطلق صوت العمة هونور بوجل:

«فيني، هذا منزل آدم، وتامي هي زوجته».

وردت فيني بانفعال:

«انها شديدة المراس».

وقال آدم بتردد:

«عنيدة».

أومأت تامي برأسها وقالت:

«نحن، معشر آل ماكسويل ثوار مشهورون».

كان لقولها وقع الصاعقة على سامعتيها، واستدارت أربع عيون نحو آدم.

«هل قالت ماكسويل؟».

كانت العمة فيني في حالة هياج جامح، بينما لزمت العمة هونور الصمت.

«جئت بعروس من آل ماكسويل الى هذا البيت؟».

كان ارتباك آدم تأكيداً للواقع، اطلقت فيني شهقة ذعر واستدارت على عقبيها وغادرت الغرفة تلحق بها اختها التي تضاهيها تعاسة

استدار آدم اليها والشرر يتطاير من عينيه:
«أكان من الضروري ان تفجّري النبأ على هذا النحو؟ كنت انوي ابلاغهما ذلك بلطف وفي الوقت المناسب».
نهضت تامي وهي لا تزال تحتضن الكلب. منذ قليل قال آدم انها «مصيبة» والآن، ينوي كتم اسمها، ورمته بنظرة تفيض تحدياً وازدراء.
«ابهذا القدر تخشى رأي عمتيك؟».
انتفخت اوداجه غضباً غير انه لم يكن في ردّه اثر للانفعال:
«اني لا اخشاهما بل اسايرهما لانني معجب بهما. العمة فيني ليست شرسة كما تحاول ان تبدو».
وردّت متهكمة:
«تعاملك وكأنك صبي شرير».
هز كتفيه واثار غيظها بابتسامة بشوشة:
«بالنسبة اليهما سأبقى صبياً شريراً، واقول لك الحق، اعيش بخوف دائم من ان تضعني احداهما على ركبتيها وتضربني على مؤخرتي».
فاجأها بهذا القول همساً.
نظرت الى طوله الفارع وتقاطيع وجهه القوية المنحدرة من اجيال المناضلين، وفمه الذي يدل على قوة العزيمة، وذقنه العنيد والعضلات التي تبرز لدى كل حركة منه، وخطوته الثابتة المختالة، ولاحت على شفتيها ابتسامة عندما فكرت بهذه الكذبة. للرجل الذي اقترنت به اغوار لن تستطيع سبرها. هذه الفكاهة غير المتوقعة كانت متعة اضافية. قليل من الرجال الذين عرفتهم استطاع اضحاكها. كانوا يسعون الى منفعة شخصية ويبالغون في ابراز الصورة التي يبغون الظهور عليها وهي الاغراق في الضحك. اما في آدم فقد وجدت بئراً غامضة من الظرف، لا يشرك فيه الا القلة من الناس. وقالت مقهقهة:

«انك مثير للدهشة، تبدو فظاً بينما انت لين العريكة».
وضعت الكلب ارضاً واتجهت نحوه وساءها التوتر الذي ظهر عليه جلياً لدى اقترابها منه. وقف بدون حراك وفي حالة تأهب عندما مدت يديها تداعب ثنيتي سترته:
«انت شهم يا آدم وتولي حمايتك لمن تحب».
وشعرت بغصة في حلقها:
«ارجو ان احظى بالشيء ذاته يوماً».
ادركت انه لا يملك المناعة التامة وقد فتنتها عضلة انتفضت في زاوية فمه. ولفترة ساد صمت مشحون بالترقب وخيّم توتر مؤلم خانق.
لاح بصيص امل في قلبها. كان يكرهها ويحتقرها ولكنه لأول مرة يشعر بها كامرأة، كزوجة جميلة جذابة.
اعتبرت ذلك تشجيعاً لها فطوقت عنقه بذراعيها، ولما لم يتجاوب معها ازدادت اقتراباً في محاولة لمطالبته بحقوقها المشروعة كزوجة.
وهمست متوسلة:
«ارجوك يا آدم، ارجوك».
وتاهت في بحر عينيه الزرقاوين.
انطلقت شتيمة فظيعة من بين شفتيه.
«كفي عن ذلك!».
وسدّد اليها دفعة ابعدتها مترنحة:
«انك تجعلين من هذا وضعاً لا يطاق».
اطلقت زفرة حارة وبذلت جهداً كبيراً لتحبس دموعها.
«لماذا يا آدم، لماذا؟ لست لا مبالياً كما تحاول ايهامي. بمحاولة منك نحقق السعادة ونجعل من زواجنا قمة في النجاح».
لم يكن غضبه منصباً عليها بقدر ما هو منصب على نفسه:
«أقر بكونك فاتنة وخاصة بلعبة الحب التي تمارسين، وانا اشبه بصياد يجتاز ينبوعاً بارداً في قيظ النهار، وقد اغوص فيه ولكنني

ولحسن الحظ املك من الكرامة ما يكبح مشاعري. لا مكان في حياتي الاّ لامرأة واحدة ولها الافضلية لدي، اما معك فأخشى ان اكون طريدتك الجديدة في نهاية صف طويل من الرجال.

٥ـ لص فظ من الشمال

عندما اصبحت تامي بمفردها في قاعة الجلوس كبتت دموع الغضب. الزجر والازدراء كانا جديدين عليها. عندما كانت مراهقة، اكتشفت مدى سلطانها على الرجال، فاستغلته، وكانوا يخضعون بالعشرات لتأثير فتنتها التي تلوح بها يميناً ويساراً وكأنها عصا سحرية، فينصاعون اليها ومع ذلك بقي قلبها بكراً لم يعرف رجلاً.

تساءلت وهي تطلق بصرها عبر النافذة الى الصخور الشاهقة: «ما الذي أوقعني في حب لص فظ من الشمال؟».

سعال اعتذار سبق دخول هونور الى الغرفة:

«أعددنا لك غرفة يا عزيزتي، تفضلي بمرافقتي فارشدك اليها».

«هذا لطف منك يا عمتي هونور. ارجو الا يضيرك ان اعتبرك

عمتي».

«لا يضيرني ابداً».

ولاح السرور على محيا العجوز وقالت متلعثمة:

«لا تعتقدي اننا نضمر شيئاً ضدّك شخصياً. كان مجرد سماع اسم ماكسويل في هذا البيت صدمة لنا».

وحدقت تامي بها:

«ما الذي يمنع ذكر هذا الاسم؟»

فأجابت العمة هونور:

«انها قصة طويلة لا اظنك تودين سماعها، لا اعتقد ان ثمة ما يربطك بتلك العائلة».

«ينحدر والدي من عائلة ماكسويل، من اناندیل».

قالتها تامي بلطف.

ارتعشت شفة العمة هونور السفلى واجابت:

«يا لله، انت اذن من سلالة جوك الاسود».

أصيبت تامي بالذهول وسارت بالعجوز المرتعدة الى الاريكة وجلست بجانبها:

«هلا اخبرتني بما فعل جوك الأسود؟».

نظرت العمة هونور حولها بحذر وكأنها تتوقع ظهور اختها، وهزت برأسها ولكنها اضطرت للاستجابة لنظرات تامي المتوسلة:

«بالواقع، لم يكن جوك الاسود بالذات، بل هي ابنته ميغ».

«احقاً؟».

واستحثتها على الاسترسال بالحديث.

«ارجوك ان تكملي، لا يمكنك التوقف الآن».

اصلحت العمة هونور جلستها وقالت:

«كان ذلك منذ عدة قرون، وقد فقدت القصة شيئاً من رونقها لكثرة ما رددتها الالسن. يقولون ان ابنة جوك الاسود اعجبت بشاب يدعى جيمس فوكس واغرمت به وبذلت المستحيل لتحظى به زوجاً

لها. كان حباً من النظرة الاولى، لانه حينذاك لم يكن تعارفهما في مناسبة اجتماعية ممكناً اذ كان ثمة عداء مستحكم بين العائلتين، وكانتا تتداوران في غزو احداهما للأخرى».

وسألتها فجأة:

«هل سمعت بغزاة الحدود؟».

فأجابت تامي:

«اعطاني آدم فكرة شاملة عنهم».

«كانت تلك حقبة فروسية في تاريخنا».

وتنهدت العمة هونور بغبطة:

«مجرد التفكير بها يجعل الدم يتدفق بسرعة في شراييني. غالباً ما اغمض عيني واتخيّل أني اسمع رنين المهاميز واكاد أرى المقاتلين يحملون الغنائم الى الديار. كان الغازي يقاتل بحماس ويمرح بحماس ويعشق كذلك بحماس، كان صديقاً صدوقاً وعدواً لدوداً. لا ينسى الاساءة ولا يدير ظهره لمحتاج. كانت القبيلة بأسرها تشعر بالعار اذا خان احد افرادها ثقة صديق او عدو. قد يعتبر البعض هذه الحقبة من الشهامة المتهورة لاعمال جريئة خاطئة التوجيه لهدر ارواح الشبان، ومع ذلك ما من ولد لسكان الحدود الاّ ويفخر بكونه من سلالة احد الغزاة في الايام الغابرة. بالنسبة الى الغزاة السكوتلانديين والانكليز من حيث يظهر خط شيفيوت الازرق ومن هنا نشأ النزاع القبلي وغزوات السلب والنهب».

«اذن فالانكليز كانوا يمارسون الغزو ايضاً؟».

سألت تامي وهي ترفع حاجبيها بدهشة.

«قال آدم ان السكوتلانديين فقط كانوا يقومون بغزو الانكليز الممتثلين للقانون!».

هزت العمة هونور برأسها وابتسمت:

«هذا غير صحيح، سلفنا جيمس فوكس رأى الفتاة التي حدثتك عنها لأول مرة اثناء احدى غزوات آل فوكس لأراضي آل ماكسويل.

قبضوا على جيمس متلبساً بجريمة سرقة مواشي آل ماكسويل، فحكم عليه جوك الاسود بالشنق على شجرة الاعدام التي لم يكن بيت من البيوت المرموقة يخلو منها. ولكن ميغ ابنة جوك توسلت والدها لان يعفو عن جيمس اذ ادعت انه قبلها ساعات اخذها عنوة. اعترض الغازي الجريء على الادعاء دفاعاً عن براءته ولكن جوك الاسود رفض الاصغاء اليه وخيّره بين الاعدام والاقتران بابنته، واعتبر جيمس الخيار الثاني اسهل الشرّين ووافق على الاقتران بميغ ماكسويل باشمئزاز كبير وفي ظل المشنقة، مع ان القانون الانكليزي كان يعتبر الزواج من سكوتلاندي او اسكوتلاندية خيانة وطنية».

ربتت العمة هونور على ركبة تامي وقالت:

«ربما تدركين الآن سبب عدم ثقتنا بقبيلة ماكسويل، ولكن ليس ما يدعوك للقلق، اؤكد انك لا تنحدرين الى هذا الدرك للاقتران بآدم».

رفعت تامي يداً باردة الى وجنتيها اللتين نداهما الخجل، وتساءلت عما تكون ردة فعل العجوز اذا علمت ان مزاحاً مارسته مع آدم كرر قصة سخط والد من آل ماكسويل على رجل من آل فوكس. وبالطبع لم تكن هناك مشنقة يتهرب منها آدم، وتململت بقلق، لا شك انه فكر بالتأثير السيىء الذي يولده انسحاب والدها من الصفقة على المزارعين الذين يمثلهم.

أما الزواج او افلاسه وافلاس اصدقائه. هذان هما الخياران اللذان كانا امام آدم، ومثل سلفه اختار اسهل الشرين.

وسألت تامي:

«ماذا جرى لجيمس وميغ؟».

بدا القلق على محيا العمة هونور لدى رؤية الغم المسيطر على تامي وقالت:

«انك رقيقة القلب بالرغم من طريقة حياتك العصرية. لو كنت اعلم ان الاسطورة سوف تسبب لك الغم لما سردتها عليك. كل ما

عرفه الناس عن جيمس وميغ هو انهما انجبا ثلاث بنات وسبعة ابناء».

وراحت تضحك وبعد لحظات من الذهول شاركتها تامي الضحك، ضبطت نفسها في البداية ثم تخلت عن تحفظها عندما ادركت قصدها.

قالت وهما تضحكان:

«آه يا عمتي هونور، الا يكون من المضحك ان يعيد التاريخ نفسه؟».

صوت فظ قطع عليهما مرحهما:

«حمل آدم امتعتك الى فوق، وانك بلا شك، تريدين ان ترتبي حاجياتك».

هبطت العمة هونور على قدميها:

«كنا قادمتين يا فيني انا التي أخرت تامي بثرثرتي».

«اصدقك».

قالت اختها مزمجرة وحدقت بتامي وكأنها تتوقع ان ترى رأساً آخر ينبت لها.

ساءها خنوع العمة هونور فقالت بشموخ:

«لا يزال في الوقت متسع، لديكم خادمة ولا شك بامكانها ان ترتب حاجياتي».

انتصبت قامة العمة فيني قليلا وقالت:

«لا خادمة لدينا وعليك ان تخدمي نفسك ما دمت هنا».

هزت تامي كتفيها:

«لا بأس، سيري امامي».

ولكن العمة هونور هي التي رافقتها وقالت لها بلطف:

«اعتقدنا في البداية انك سوف تشاطرين آدم غرفته، ولكنه اصر على حاجتك الى غرفة خاصة بك تحتوي على خزائن فسيحة، ولذا وضعنا امتعتك في الغرفة الملاصقة لغرفته ومع ذلك اشك بتوفر

المساحة الكافية لأمتعتك الكثيرة».

تولت تامي الدهشة. تركت ثلاثة ارباع حاجياتها في الشقة بعد ان شدّد آدم عليها بحمل الضروري منها فقط.

كانت في غرفة نومها نافذة تطل على سفح الجبل الذي يغمره لون ذهبي تحت اشعة شمس الأصيل. سرير بأربعة اعمدة تكدّست عليه اغطية اثارت شكها بان الموقد الذي تم اشعاله بسرعة لن يكفي لابعاد الرياح، التي ستهب عن الجبال التي تكسوها الثلوج فتخترق شقوق الجدران القديمة. الالواح الخشبية التي تكسو الجدران والستائر المخملية السميكة اضفت جواً من الاطمئنان، وكذلك بدت الخزانة كافية لاستيعاب حاجياتها.

وضعت العمة هونور المزيد من الفحم في الموقد وقالت بلطف:

«نصف ساعة ويصبح الفحم جمراً وعندها تشعرين بالدفء. النار في غرفة النوم رفاهية ولا نوقدها الاّ اذا كان في الغرفة مريض».

«ما كان يجدر بك ان تتجشمي المشقة لأجلي».

قالت تامي معترضة وقد هالها العمل الاضافي الذي حمله الكاهلان اللذان ينوءان بالاعباء:

«انا فتية وصحتي جيدة. اذ كنت واختك قادرتين على العيش بدون نار فكذلك استطيع انا».

«آدم اصر على ذلك يا عزيزتي».

رنة صوت هونور البسيطة اوحت بعدم جدوى الجدل:

«سأتركك لتستبدلي ملابسك. نصف ساعة ويكون العشاء جاهزاً. ستكونين وآدم مستعدين له، ولا شك».

كان الحمّام في الرواق، ولدى دخولها اليه، انبأتها رائحة صابون زيت الفحم بان آدم سبقها في استعمال الحمّام الاثري الذي بدت عليه بقع سوداء من كثرة تنظيفه، حنفياته قديمة تتدفق منها مياه فاترة مبعثرة، وهنا تذكرت حمامها الفخم. قامت بغطسة سريعة وخرجت من الحوض وتناولت منشفة لفت بها اطرافها المرتعشة، وبعد فرك

سريع لجسدها اندفعت الى غرفة نومها وارتدت اسمك ملابسها وفوقها ثوب صوفي طويل الكمّين ياقوتي اللون، تبرجت قليلاً واطلقت مشطاً سريعاً في شعرها ووضعت قرطين من الياقوت في اذنيها.

كان آدم ينتظر في قاعة الجلوس:

«اراك استبدلت ملابسك للعشاء، كنت انوي تنبيهك ولكنني نسيت. اني اعتبر ذلك هدراً للوقت، ولكن العمتين تصران على الرسميات بعد الساعة الثامنة مع انه لا يزورنا احد، انها تتمسكان بالتقاليد القديمة».

«هذا يروق لي».

قالت تامي مبتسمة واخذت كوب المرطبات الذي قدمه لها.

«لا تنتزع علامات الحدود التي وضعها الآباء».

عقد حاجبيه لدى سماعه هذا القول وقد ادهشه اطلاعها على محتويات الكتاب المقدس.

«اني اعتبر ذلك اذناً للأموات بالتحكم بالأحياء».

هز كتفيه وقد اذهله منظر الجمال يلتصق به كضلع يضاف الى ضلوعه:

«العمتان جاهزتان لتقديم العشاء، والافضل الاّ نتأخر عليهما».

ارتفعت معنويات تامي عندما سارت امامه الى قاعة الطعام حيث كانت العمتان تذرعان الارض جيئة وذهاباً.

اطلقت للعمتين ابتسامة خلابة عندما جلست على احد المقاعد وتقبلت صحناً من السمك المكسو بصلصة الخردل.

«سيكون طعامك هنا بسيطاً ولذيذاً».

قالتها العمة فيني بلهجة الاتهام تقريباً.

«عندما تتذوقين لحم البقر، سمك سولواي ولحم خروف هردويك الشهي ستحتقرين المآكل الوهمية. بالمناسبة يا آدم، كيف جرت اعمالك في لندن؟ هل تمكنت من عقد صفقة افضل

للمزارعين؟».

قالتها بطريقة مفاجئة جعلت يده تتوقف بالطعام قرب شفتيه.

بانتباه شديد اخفض آدم يده التي تحمل الطعام وأجاب:

«اجل، وذلك بفضل والد تامي. عرض شراء كل ما لدينا بسعر افضل من الذي عرض علينا مؤخراً في المزاد».

«ما الذي دفعه الى ذلك؟».

طرحت العمة فيني السؤال الذي طالما تردد في خاطره.

اجاب وهو شارد اللب:

«لست ادري، شرحت له كيف اني وزملائي نواجه خطر الافلاس بسبب تدنّي اسعار اصوافنا».

وقال مخاطباً، تامي:

«هنالك هبوط في سوق الصوف لأن الألياف الاصطناعية التي هي ارخص ثمناً واكثر متانة تسيطر على السوق، وبنتيجة ذلك فان الاسعار المعروضة علينا ثمناً لأصوافنا هي ادنى بكثير من اكلاف طعام حيواناتنا».

قالت العمة فيني مقاطعة:

«هذا الرجل...».

«جوك ماكسويل هو والد تامي زوجتي».

زجرها آدم ببرود ظهر الاشمئزاز على محياها لاضطرارها الى التفوه بالاسم.

«أليس جوك ماكسويل رجل اعمال؟ لماذا وافق على دفع ضعف ثمن ما يلزمه؟».

اجاب آدم متلعثماً:

«ربما عطفاً منه على مزارعي الجبال، وقد يكون سعيي وراء العدل اصاب منه وتراً حساساً».

«هراء».

نهضت العمة فيني تجمع الصحون الفارغة.

لم يولد السكوتلاندي الذي يفضل العدل على المال. والماكسويل العطوف نادر ندرة الثلج في الصحراء. ولكن ليس فيهم احق واحد. آدم، احترس من المساعدة التي يقدمها ماكسويل، سوف تكتشف ان وراء مساعدته دافعاً يثير الشهية».

الاهانة خنقت تامي فدفعت بصحن الطعام الذي كانت العمة هونور وضعته امامها وصرخت بغضب نحو العمة فيني:

«كيف تجرؤين على هذا القول؟ والذي هو اكرم الناس قاطبة وهو على استعداد دائم لمد يد المساعدة».

«ربما يساعد ذويه وابناء جلدته ولكنه لا يساعد انكليزياً وخاصة اذا كان من آل فوكس».

شعرت تامي بانها تتخبّط في مستنقع من العداء القديم والالتزامات العشائرية وكانت تظنها انقرضت منذ اجيال، ووجدت صعوبة في كبح جماح غضبها وحاولت الكلام بتعقل:

«لم يعد السكوتلانديون والانكليز في حالة حرب. الغيرة العمياء والاقتتال العائلي والشرائع العشائرية جميعها اندثرت منذ سنوات عديدة. عندما اصبحت الحدود جسوراً تقوم على روابط القربى التي نشأت عن التزاوج فولدت ثقة متبادلة في المعاملات التجارية كالتي ينوي آدم ووالدي اجراءها، وقد شاع التزاوج بحيث اني اشك بوجود سكوتلاندي حدودي واحد ليست له روابط بعائلة انكليزية. وليس في هذه المنطقة الريفية والجبال النائية والوديان الموحشة ما يشير الى ان هذه الارض كانت يوماً ساحة حرب دامية. السطو والسلب انقرضا منذ اجيال ويصعب التصور ان هذه الارض كانت للاشرار وتفصل بين الاشراف الانكليز الحدوديين والخارجين على القانون السكوتلانديين».

ادهشها ان تكون العمة هونور هي التي ناقضتها بصوت حالم يتمشى والنظرة التائهة التي في عينيها:

«الامر ليس كذلك يا عزيزتي! ارواح الاسلاف لا تزال تحيط بنا.

صرخات الغزاة تحملها الريح لتتحوّل الى همس في مناقير الطيور والى عويل بين اغصان الاشجار التي تدلي برؤوسها الى المياه الراكدة. وليلا، عندما يكون القمر بدراً وتكون الرياح شديدة، بحيث تدفع بالغيوم القاتمة عبر قمم الصخور الشاهقة، تضطرب الحيوانات، وبدون اي سبب ظاهر تنبح الكلاب وتهرب الخراف قطعاناً عبر الجبال، ويقلع الثعلب عن التجول، ويسرع عائداً الى جحره، كل ذلك بسبب اصوات الاشباح التي لا يسمعها سواها وقلة ضئيلة من الناس. صليل السيوف، صرخة رجل ينقض على عدوه، الحشرجة الأخيرة لعدو يخترق سيف جسده».

ارتجفت تامي متأثرة بشدة معتقدات العجوز. وعندما التقت عيناها عيني آدم قرأت فيهما تحذيراً من التهكم، وامراً بان تحذو حذوه فتتحمل عن طيب خاطر. كفت عن الجدال والحزن يخيم عليها. هزمتها مقاومة عنيفة من عقل لا يمكن ان تصل الكلمات اليه.

٦- لقاء ينتهي بعاصفة

بعد منتصف الليل بقليل استيقظت تامي ترتجف برداً، وكانت النار في الموقد قد خبت، وعندما اطلت برأسها من تحت الأغطية كان جو الغرفة اشبه بالجليد، ورأت نور القمر ينساب من خلال الستائر المسدلة، ولاحت لها في الخارج كتل الصخور الضخمة البارزة بأشكالها غير المنتظمة.

لفّت جسدها المرتعد بالأغطية الثقيلة وقد حنّت الى لحافها الدافىء خفيف الوزن والى حرارة شقتها في لندن. أحسّت بأنها تعيسة، كسيرة الفؤاد ولم يسبق لها ان شعرت بمثل هذا البؤس في حياتها. بعد العشاء، استأذن آدم للذهاب الى اجتماع للمزارعين وأوت العمتان الى الفراش باكراً. تركوها ولا رفيق لها سوى جهاز للراديو

ومكتبة حافلة بكتب قالت العمة فيني انها تتحدّث عن تاريخ الحدود وهي كفيلة بتحسين معارفها.

ألقت نظرة عابرة على عناوين الكتب ولما لم تجد ميلاً الى المطالعة استقرت في مقعد مريح تنتظر عودة آدم، ولكن عند الساعة الحادية عشرة أخذ البرد يزداد تدريجياً في الغرفة وبما ان حطب الموقد أصبح رماداً اضطرت للجوء الى فراشها.

تشنّجت عندما سمعت صرير الالواح الخشبية التي تكسو الارض خارج غرفتها، وأصغت الى وقع الخطى يجتاز البهو ثم يتوقف عند باب الغرفة المجاورة، فاسترخت على وسائدها وشعرت بالاطمئنان لأن آدم عاد الى البيت.

راودتها فكرة القرع على الباب الفاصل بين الغرفتين ولكنها قاومتها. ولماذا لا تفعل ذلك؟ ان آدم هو زوجها وليس من حقه ان يقفل الباب الفاصل بين غرفتيهما في أول ليلة من شهر العسل. وبحركة لا شعورية غادرت فراشها واندفعت نحو الباب وعندما حاولت فتحه وجدته مقفلاً.

راحت تدق الباب:

«آدم، دعني ادخل».

توقفت الحركة في الغرفة المجاورة فجأة وسمعت وقع خطى تقترب:

«ماذا تريدين؟».

كادت ان تتراجع من شدة الخوف فتابع قائلاً:

«الوقت متأخر ويجدر بك ان تكوني نائمة».

تحملت الاهانة وقالت من بين اسنانها المصطكة:

«يجب ان اتحدث اليك وأرفض محادثتك والباب مقفل بيننا فأرجوك ان تفتحه».

همسات آدم الساخطة كانت مسموعة وهو يدير المفتاح. وعندما انفتح الباب بقي واقفاً على العتبة يحدّق مذهولاً بقوام تامي المرتعد،

وقد غلفه القمر بخيوطه الذهبية الخلابة وبدت فاتنة جذابة في قميص نومها الحريري الشفاف.

«يا لله!».

وأضاف بلهجة مجردة من كل اطراء:

«أليس لديك ما هو اكثر احتشاماً ترتدينه؟».

بلى، كان لديها ما هو اكثر احتشاماً ولكنها أبت الاقرار بذلك. انتقاؤها لجهازها كلّفها الكثير من العناء، فلا البرد ولا المكان العدائي الذي انشأ اناساً عدائيين بقادرين على اقناعها بالتخلي عن قميص نومها الحريري لترتدي آخر اكثر احتشاماً.

عندما نظر الى الارض ادركت انه يتهرب من تأثيرها عليه. وسألها باقتضاب:

«ماذا تريدين؟ الأحرى بنا ان نكون في الفراش».

صممت ان تكون جريئة، فتشبثت بذراعه وألقت برأسها على صدره وقالت بهمس حنون:

«أجل يا آدم، اني اشاطرك الرأي».

تتابعت انفاسه بصوت مسموع واذا بيديه تنقضان على كتفيها وتهزانها بعنف.

قال وهو يصرف بأسنانه:

«تباً لك يا تامي، يجب ان تقلعي عن كل ذلك، أتسمعين؟ اتريدين ان تثبتي ان تامي ماكسويل تنال كل ما تريد؟».

توردت وجنتاها خجلا، وحبست انفاسها، ورفعت رأسها ونظرت الى محياه الغاضب والتحدي يشع في عينيها وقالت:

«أنا تامي فوكس ولا اطلب سوى محبة زوجي والشعور بذارعيه يطوقانني، هل اغالي في الطلب؟».

بقي صلباً لا يلين، وامسك بذقنها بين اصبعيه وتكلم بنبرة تفيض قسوة:

«طفلة مدللة مثيرة للغضب! العاطفة الوحيدة التي اكنها لك هي

المحال. لأن والدك الخرف حقق كل امنية لك، تتوقعين الشيء ذاته من زوجك! ولكن هذا ليس اسلوبي».

واشتدت قبضته الى حد لا يطاق وتابع حديثه:

«أريد زوجة تضع احتياجاتي في المرتبة الاولى، وتجعلني مركز اهتمامها، وان تشتغل معي جنباً الى جنب في جميع الاحوال الجوية بدون ان تتذمر من البرد او الاوساخ او التعب، وانت لا تتمتعين بشيء من هذه المؤهلات».

وبدت السخرية في عينيه وهو يرمقها من رأسها حتى اخمص قدميها.

«لا شك في اننا سنكون منسجمين في المجالات العاطفية، ولكن ظروفي لا تسمح لي باتخاذ صديقة، بل اريد امرأة تكون لي زوجة طوال الاربع والعشرين ساعة باليوم، لا فتاة غريبة امضي معها هنيهات فراغي».

تجاهلت احتقاره، وركزت اهتمامها على الشروط التي ابداها فقالت:

«سوف اشتغل معك يا آدم. سأنفذ كل ما تطلب مني. اجد متعة في الطهي والتنظيف وسأكون مقتصدة. . .».

فأجاب ساخراً والضحكة تتكسر بين كلماته:

«ستقتصدين بطلاء اظافرك!».

وهنا تحركت طباع آل ماكسويل. لقد أذلت نفسها كثيراً امام هذا الجبلي المتعجرف، وزحفت على ركبتيها ارضاء له، ولم تلق منه الاّ التهكم والصد، ولكنها لم تشأ الاعتراف بالهزيمة حتى ولو تسلط سيف على عنقها. لم يكن عليها سوى تغيير اسلوبها.

الانين الذي اطلقته بدا حقيقياً، وعندما ارتمت على صدره لم يسعه الاّ ان يتلقف جسدها المتهاوي.

«ما بك؟».

كانا يتجادلان بهمس الاّ ان الخوف انساه انه قد يسمعهما احد

فازداد صوته ارتفاعاً والقلق يسيطر عليه:

«تامي، بالله عليك، اخبريني ما بك!».

قالت وهي تئن:

«اشعر ببرد شديد».

«اكون مندهشاً اذا لم تشعري بالبرد».

أخفت ابتسامة في كتفه وهو يحملها الى السرير، حيث رفع الغطاء العلوي ووضعها بين الأغطية الناعمة، وراح يدلك اطرافها بلطف لتنشيط دورتها الدموية، ووجدت صعوبة في التظاهر بالجمود بينما كانت كل لمسة من اصابعه ترسل الدم حاراً في شرايينها.

كادت ان تنفجر ضاحكة عندما تذكرت كيف انها كانت تتهرّب من مثل هذا الموقف، ولم تنسَ ان تطلق انيناً خافتاً لتوهمه ان ارتعاشها مبعثه البرد.

«ضمني اكثر اليك يا آدم. اعتقد انه سيغمى عليّ».

جازت عليه الخدعة فضمها وازداد في تدليك اطرافها، تشبثت به بينما كان منهمكاً في مهمته، ولم يدرك مدى نجاحها الا عندما طوق عنقه ذراعان حنونان. . .

تصلب فجأة اذ ادرك انه كان ضحية استدراج الى هذا العناق، وتساءلت تامي ما اذا كان غاضباً، ثم قررت ألاّ تبالي خاصة انها شعرت بالدفء يسري في كيانها، وطريقة تنفسه انبأتها بانه يدرك كونها امرأة جذابة وعروساً متفانية في حبه.

استغلت هذه الهنيهات وهي تتوقع الصد الحاد المعتاد والسيل من العبارات الجارحة، ولما لم يحصل شيء من ذلك، تجرأت على فتح عينيها، فهالتها العاطفة الجياشة التي اثارتها في العينين الزرقاوين، وعندما راح يهمس باسمها أدركت انها انتصرت. كان صوته اشبه بماء في ساقية.

«احبك!».

همستها في اذنه برقة، وشعرت به يرتعش، اقتنعت بأن تصرفاته

الفظة لم تكن سوى عقاباً فرضه عليها كتحذير لكي لا تحاول احتواء روحه المستقلة. هذا الرجل الجبلي يريد ان يكون طليق الروح كصقر يجوب الاجواء رافضاً جميع انواع القيود، سواء كانت جسدية او عاطفية او زواجية. كان انطواؤه على نفسه عقبة قامت بينه وبين العاطفة الجياشة التي تكنها له، ولكن العقبة زالت واصبح الصقر مستعداً لأن يكون رهن اشارتها وطوع بنانها.

أحست وهي بين ذراعيه بمشاعرها تبعث حيّة وكأن العاطفة التي خمدت سنوات طويلة بعثها الحب الى الحياة ثانية. تولتها غبطة عارمة. خيل اليها انه اصبح كلياً تحت سيطرتها الى ان ضمها الى صدره بعنف وراح يوجه اليها العبارات النابية.

«أيتها المغرية اللعينة والمحتالة الصغيرة! تعمّدت الايقاع بي، ولكن كيف استغل طفلة قادرة على سلب الرجل عقله؟ ترى، اتملكين الانوثة الكافية لتحمل نتائج عملك؟ ام انك تظنينني ساذجاً؟ ربما ثقتك بنفسك نابعة من سابق خبرتك؟».

فقالت متوسلة:

«لا تجعلني موضع الشك يا آدم».

ووضعت راحتيها على وجنتيه النحيلتين وراحت تتوسل اللين في عينيه الزرقاوين العاصفتين. كانت على استعداد لأن تضع نفسها بتصرف هذا الرجل. وبكل حياء وعلى سبيل التجربة حاولت ان تشرح له اسباب تحفظها الذي اثار دهشة واستغراب اكثر صديقاتها تحررا.

«لم استسغ فكرة العيش في ضياع دائم مع انني تعرضت الى ضغوط هائلة لكي اسلك هذا السبيل. كنت اريد اتحاداً دائماً مع رجل واحد، ولكن حتى لقائي بك لم يكن هنالك رجل اشعر نحوه بأدنى ميل لاشراكه في حياتي. وبدافع غريزتي، كنت واثقة ان الرجل الذي انشد سيظهر يوماً، ولكي احفظ نفسي له فقط اصبحت اميل الى الوحدة».

وازدادت به التصاقاً، وتمنت ان يبقى على رقته هذه، فيكون لها الزوج المثالي ويحقق لها الحلم الذي يداعب مخيلتها منذ ان ادركت معنى الحياة. تمنت ان يتخلى نهائياً عن تصلبه وازدرائه لها فتنعم بحياة زوجية هانئة تخيم عليها السعادة بقرب زوج يتفانى في حبها ويكن لها كل تقدير واحترام.

همس في اذنها:

«ما الذي يؤكد لي ان هذا سيدوم؟ ما الذي يضمن لي انك لن تمليني بعد حين؟».

فأجابت تطمئنه بحماس:

«لم يكن في حياتي سواك... لم يكن في حياتي رجل بالمعنى الصحيح. أحببتك في اول لقاء لنا وحتى والدي لاحظ ذلك، حتى انه...».

كف عن كل حركة وقال:

«اكملي، حتى انه ماذا؟!».

ولشدة غبائها قالت له بحياء:

«حتى انه تقدم اليك بعرض مغر لابقائك في لندن، وبذلك اتاح لنا فرصة لتوطيد تعارفنا».

دفع بها بعيداً عنه بطريقة مفاجئة:

«القى بطعم لاصطياد السمكة. كان الأحرى بي ألّا اثق بشخص من آل ماكسويل».

لم تصدق تامي ان هذه اللهجة القاسية تصدر عن شفتين كانتا منذ برهة وجيزة تهمسان بعبارات الغزل في اذنيها.

«هذا ينطبق على طباعك، رأيت شيئاً اعجبك فاشتراه لك والدك الخرف».

«كلا، كلا!».

حاولت وقد هزها تأثير الصدمة ان تصلح ما افسده اعترافها الغبي:

«لقد حاول مساعدتي فقط».

فرد عليها بجفاء:

«ساعدك على نيل مشتهاك. لم تري بعد سوى الناحية الطيبة من طباعي وستعرف رأيك بالناحية السيئة منها».

رفعها اليه ومددها على ركبتيه وراح يسدد الى مؤخرتها صفعات لاسعة متتالية جعلتها تصرخ معترضة غير مبالية بآذان العمتين المثيرة للفضيحة، وراحت تخدشه تارة، وتعضه اخرى في محاولة لوضع حد لهذا العقاب الأليم. سدّد اليها عشر صفعات اخرى قبل ان يعتبرها قد نالت ما تستحق من عقاب، ثم حملها على كتفيه وكأنها قطعة من متاع وسار بها الى غرفتها وبكل ازدراء القى بها على سريرها ومشى خارجاً بدون ان يلتفت الى الامرأة المنتحبة التي كانت تضرب وسادتها بقبضتيها وتقسم اغلظ الايمان بان تنتقم.

٧ـ انت ضلع من ضلوعي

في الصباح التالي هبطت تامي لتناول الافطار وقد أعدّت خطة لهجومها وهي استغلال نقطة الضعف لدى آدم، ستلازمه وكأنها ضلع اضافي من ضلوعه. ستلجأ الى كل ما تعرفه من فنون الاغراء ضدّ زوجها العنيد. تمكّنت ميغ ماكسويل من تخطو. هذه العقبة، فلماذا تعجز هي عنها؟ واذا استطاعت ان تحطم عنفوانه او احراجه قليلاً فسيكون هذا بعض التعويض عما نالها منه الليلة السابقة.

التقت العمة فيني في القاعة وابتسامتها الماكرة انبأتها انها سمعت الصراخ الذي انطلق من غرفتها.

شمخت تامي برأسها لاخفاء خجلها وقالت:

«واين آدم ايتها العمة فيني؟».

«خرج الى الجبل ليصدر تعليماته الى رعاته. ستلد النعاج بعد اسبوع او اسبوعين وفي هذه الفترة يجب نقلها من الجبال الى الحقول المجاورة للبيت. الأسابيع القليلة المقبلة ستكون حافلة بالعمل بالنسبة الى آدم، ولن يتسع وقته لك. هذا لا يعني انه ليس بحاجة الى زوجة».

وظهر التعب في عينيها فاضافت:

«وخاصة في موسم جز الصوف، فهناك عشرات الجياع يجب اطعامهم».

انتصبت وقد زال تعبها العابر وتابعت قائلة:

«هناك عشرات الحسناوات المحليات كن يتمنين الاقتران بآدم، وهن قويات البنية ويعرفن كل شيء عن حياة المزارع الجبلي، ولكن لا، كان لا بدّ له من المجيء بغبية مثلك».

انصرفت حانقة فانطلقت تامي في الاتجاه المعاكس وتورّدت وجنتاها انفعالاً ودغدغ لسانها جواب سريع لجمته. لولا امارات التعب التي بدت على العمة فيني لنالت ما يوجعها من لسعات لسان آل ماكسويل.

انفرجت اسارير العمة هونور عندما دخلت تامي الى المطبخ، وكانت تحيتها لطيفة بعكس تحية اختها اللاذعة.

«وطاب صباحك، ارجو ان تكوني قد نمت جيداً و. . .».

وبان عليها الارتباك فقالت:

«ما اعنيه هو. . .».

وبعد ان استعادت تامي هدوءها، سكبت فنجاناً من الشاي في اناء فخاري اسمر واضافت اليه القليل من السكر ثم قالت:

«ما تعنيه هو انك سمعت صراخي عندما ضربني آدم في الليلة الفائتة. لا تقلقي، اني انوي الانتقام».

كانت العمة هونور تدعك الطحين بالسمن لصنع الحلوى فتوقفت اصابعها عن الحركة لدى سماعها كلمات تامي، واتسعت

حدقتاها وراحت تفكر بهذه الاجابة الغريبة.

«لا اقصد التدخل في شؤونك يا عزيزتي».

قالتها بينما كانت تامي تقضم بسذاجة قطعة من الخبز المحمص ثم اضافت:

«أقوالك توحي بان زواجك من آدم سيكون عاصفاً كزواج جيمس من ميغ».

فاجابتها موافقة:

«يبدو انهما يسيران في خطين متوازيين، ولكنني مثل ميغ انوي ان انتصر في النهاية».

تجعّدت البشرة المحيطة بفم العمة هونور لترسم الف ابتسامة صغيرة:

«أدعو لك بالتوفيق يا عزيزتي. لا تتردّدي في طلب المساعدة مني عند الحاجة».

انتهت تامي من تناول الشاي، ودارت حول المائدة لتعانق العجوز اعراباً عن امتنانها:

«شكراً لك».

وطبعت على وجنتيها قبلة خاطفة:

«اني بحاجة الى كل حليف ممكن. ارشديني الى مكان آدم».

سارت العمة هونور نحو النافذة واشارت باصبعها الى الاعلى، وعلى محياها مسحة من الشك:

«قرب قمة الجبل كوخ للرعاة ولا انصحك بالذهاب بمفردك، في الطريق صخور ملساء. في اي حال سيكون آدم قد رحل لدى وصولك. السير على الجبال خطر على الوافدين الجدد. خيرلك ان تنتظري عودته».

وسألت تامي مستاءة:

«أيعود في موعد الغداء؟».

«كلا، الاتصال بالرعاة وتفقد القطعان يستغرقان النهار بكامله،

وقد حمل معه زاده وماءه، ولا نتوقع عودته قبل المساء».

«لا استطيع الانتظار نهاراً بكامله. لا بدّ من وسيلة لوصولي اليه».

امعنت العمة هونور التفكير وقالت:

«ثمة احتمال ضئيل في ذهابه الى النزل الذي في الوادي. المزارعون هنا يتخذونه مكاناً للقاءاتهم، بحيث يتناولون المرطبات مع الطعام، واعتقد ان آدم سيكون هناك في موعد الغذاء. ولكنها مسيرة طويلة وليس ما يضمن ان تجدي من يعيدك بسيارته. الا يجدر بك ان تأخذي السيارة؟».

«كلا، ارغب في المشي. اكتبي لي توجيهاتك لبلوغ المكان، بينما اصعد واستبدل حذائي».

«الطريق بسيطة جداً، تنطلق من فوكس هول، تتعرج وتدور حول الجبل الاسود الكئيب المطل على الوادي. سيري على الطريق تري النزل وهو البناء الوحيد في تلك الناحية».

قررت تامي اصطحاب الكلب المدعو سيلفر وانطلقت على الطريق والكلب يقفز في اعقابها. ارتفعت معنوياتها ارتفاع الصقر الذي شاهدته يحلّق فوق رأسها وقد ظهر بوضوح في السماء الزرقاء الصافية.

معظم الثلج قد ذاب عن الجبال، وتحولت الريح نحو الشمال، ولسعة البرد دفعت تامي الى حث الخطى. ابتسمت للشمس فوق الجبل القاحل الكئيب الخالي الاّ من بضعة خراف ومن طير عابر. ابتسمت تامي لشعورها بكونها ابنة هذه الارض.

«سيلفر!».

نادت الكلب الذي تخلف قليلاً وابتهجت عندما استجاب لندائها بوثبة.

بعد مسيرة ساعة تراخت خطاها. وسيلفر الذي كان قبل نصف ساعة قد ربض ورفض ان يتحرك، كان يزن قنطاراً وهو ينعم بنوم

هانىء داخل سترتها. تمنت لو انها حملت الطعام الذي عرضته عليها العمة هونور. لم تحمله لاقتناعها بأنها ستتناول الطعام في النزل الذي لم يظهر له اثر بعد، وبالاضافة الى الجوع فقد اخذ العطش منها كل مأخذ.

استأنفت المشي نصف ساعة اخرى وهي لا تجرؤ على التفكير بمسيرة العودة. قالت تحدث نفسها:

«قد اجد من يعيدني بسيارته».

وهزت رأسها، طوال مسيرتها لم تمر بها سيارة واحدة. ولمحت من بعيد بناء جزمت بكونه النزل، وحثت الخطى، وعندما اقتربت اخذت تتبين تدريجياً يافطة تحمل رسوم كلاب وجياد وفرسان وتحتها عبارات الترحيب.

«نزل الرياضيين».

لم يكن النزل سوى بيت اجريت عليه بعض التعديلات، له غرفة مامية فيها ست موائد صغيرة نظيفة، على كل منها صحون سجائر فارغة. لم يكن في الغرفة احد. وسمعت تامي اصواتاً مصدرها رواق يؤدي الى خلف البيت، وفيما هي تتجه نحو الصوت برزت امرأة من باب الى يمينها ومدت لها يداً اوقفتها.

«الصالون الى اليسار يا عزيزتي، المقهى للرجال فقط».

«اني ابحث عن زوجي، اتعلمين اذا كان هنا؟».

جالت المالكة ببصرها في بنطلون تامي وحذائها الثمين وسترتها المزركشة وردت ببشاشة:

«لا اظن ذلك، ولكنني ساعرف اذا قلت لي اسمه».

وعندها سمعت تامي صوت آدم الرنان:

«هذا صوت آدم».

قالتها للمالكة التي فتحت فمها دهشة.

«لا داعي لازعاجك، ساجد طريقي اليه».

تركت الامرأة فريسة للدهشة واندفعت في الرواق الى ان دخلت

غرفة مستطيلة منخفضة السقف كانت في السابق مطبخاً تم تحويله الى مقهى، شغل الموقد احد جدرانه بينما اصطفت مقاعد خشبية بمحاذاة الجدران الثلاثة الاخرى ليشغلها ما يقارب العشرة رجال يتبادلون الاحاديث الودية وسحب الدخان تتصاعد من غلايينهم القديمة، وكان برفقة بعضهم كلاب تربض بصبر عند اقدامهم.

اندفعت تامي الى الداخل وساد صمت غريب وكأن الحديث قطع بسكين. كان آدم يجلس وظهره اليها، ولكنه استدار متتبعاً نظرات الدهشة التي تملكت رفاقه.

علت وجهه ملامح غريبة اتكأت تامي بدلال على الباب وادركت انّ لحظة انتقامها قد دنت وبانت على الوجوه المحيطة بها امارات الاستهجان لاقتحامها مكاناً معداً للرجال فقط.

كانت تتحرّق شوقاً لأن تصبّ الزيت على نار الرجولة المتزمتة.

«آدم حبيبي».

وأمام عيون الحضور المحملقة دهشة، جرت نحوه وطوقت عنقه بذراعيها وضمته اليها في عناق حار طويل.

شلّت الدهشة حركته، ثم امتدت يداه الخشنتان الى خصرها ودفعها بعيداً عنه. وامام هذا الاحراج وادراكه لمغزى صمت رفاقه لم ير بدأ من اجراء التعارف بصوت اجش:

«اقدم اليكم زوجتي تامي... تامي، هؤلاء هم بعض جيراننا».

اصغت اليه برهبة فائقة وهو يتلو سلسلة من الاسماء وكأنها معزوفة لجوقة الشرف. في الليلة السابقة تصفحت «المحاكمات الجنائية» لبيتكرن، الكتاب الذي سجل بدقة تفوق دقة سجلات ديبريت عن العائلات الحدودية الرئيسية والمنتمين اليهم. الاسماء التي كان يتلوها آدم هي الاسماء اياها التي قرأتها في الكتاب: لوثر، كروين، سانكيلد، ديكر، ووتليدج، نوبل، مسبروف، وآخر من قدمه آدم من رفاقه كان طوم هردن، الذي بدا مرتبكاً لزواج آدم

المفاجيء.

انحنى برصانة وقال:

«تشرفنا، ارجو الاّ تجدي هذه الضاحية نائية جداً، اما اذا شعرت بحاجة الى رفيقة فتفضلي الى منزلي وانا واثق ان ابنتي بام يسعدها التعرف عليك».

ازداد الجو توتراً، تردّد اسم الفتاة في جو الغرفة متنقلاً من شفة الى اخرى، يهمسون به ساترين افواههم بايديهم، وساورت تامي الريبة. ايا كانت بام هذه فهي على علاقة مميزة بآدم.

قطع حبل الصمت رجل يجلس في احدى الزوايا اذ قال:

«النساء! اما من مكان نقصده لنتخلص منهن؟».

تجاهل آدم نظرة تامي الساخطة وبدلاً من توبيخ العجوز على قحته امسك بذراعها بعنف وسار بها الى خارج المقهى. وزاد سخطها عندما توقف بالباب والتفت ليعتذر.

«ارجوكم ان تعذروا تطفّل زوجتي فهي لا تعرف تقاليدنا بعد. امهلوها قليلا فتدرك ان مجتمعنا لا يسمح للنساء باقتحام اماكن تجمع الرجال، ولكنها ستتعلّم ذلك بسرعة».

وبينما كان يدفع بها في الرواق اعترضت قائلة:

«اني عطشى ولم اشرب بعد».

تجهم وجهه وفتح باباً ودفع بها الى الغرفة الامامية الصغيرة التي كانت قد رأتها.

«اجلسي في الداخل، ماذا تريدين ان تشربي؟».

«اريد كوباً من العصير، من فضلك».

قالتها بكل دعة وتهذيب لو سمعها والدها لادرك انها تضمر مكيدة.

بينما كانت تنتظر عودة ادم، اخرجت سيلفر من مكانه ووضعته على الارض متجاهلة عواءه اعتراضاً، وعندما عاد آدم يحمل كوباً واحداً رفعت حاجبيها تساؤ لا:

«الا تنوي مجالستي؟».
عقد ذراعيه على صدره وعلى محياه امارات نفاد الصبر وقال:
«كلا، لا وقت لدي».
«وقتك لا يسمح لك بالتفرغ لي ابداً».
وراحت ترشف العصير بتمهل.
«سيكون وقتي اكثر ضيقاً في المستقبل. كيف تجرؤين على احراجي امام اصدقائي بتلك التحية العاطفية السخيفة؟ تعمّدت هذا العمل، اليس كذلك؟».
لم تفته حمرة الخجل التي خضبت وجنتيها:
«ارى اني على حق. كان ذلك انتقاماً مدبراً وكنت تعلمين ان المقهى محظّر على النساء».
وضعت كوبها وقالت:
«كنت اجهل ذلك، حتى ولو كنت اعلم لما باليت ولتجاهلت تلك التقاليد الخرقاء. الا تعلمون يا معشر الغزاة ان قانوناً صدر يمنع التمييز بين الرجل والمرأة؟ الم يبلغ آذانكم المنعزلة انه لم يعد محظرا على النساء ممارسة اية مهنة، فكيف بالحري ارتياد المقاهي التي تحت سيطرة الرجال؟ سأذهب حيثما اشاء واذا تعرضت لأي سؤال فسأقول ان مكان المرأة هو بجانب زوجها! لا ارضى بالبقاء مهملة في فوكس هول بينما تسعى انت كل يوم وراء ملذاتك. اريد مرافقتك واذا حاولت منعي فاني سألحق بك، وعندما اعثر عليك سأحييك كما فعلت اليوم. لا اخجل من اظهار مودتي بل اجد متعة في ذلك، وقد يحذو اصدقاؤك حذوي اذا وجدوا من يعلمهم».
«لن تفعلي!».
«جرّبني!».
كان يعلم انها جادّة في كل ما قالت، بالرغم من علمها ان اهالي الشمال قوم عاطفيون فانهم يملكون القسط الأوفر من التحفظ الانكليزي. التصرّف المشين الذي تحدثت عنه سيكون فظيعاً بالنسبة

الى آدم.
قال وهو مقطب الجبين ويتحرّق شوقاً الى خنقها بيديه المتشنجتين:
«هذا ابتزاز. ميزة اخرى من ميزات آل ماكسويل تطل برأسها البشع».
ردت بكل جرأة:
«خيّل الي أنّ تصرفي كان ثناء على رجولتك، سمه ما شئت فالنتيجة واحدة، سألازمك وكأنني ضلع من ضلوعك وقد تحذو حذو من تحمل اسمه فتستبدل ضلعك بزوجة».
«وامضي حياتي البائسة نائماً مثله؟».
وساورته رغبة شديدة في ضربها مرة اخرى.
ابتعدت تامي عنه وهي تضحك بعصبية:
«اني مستعدة للعودة الى البيت الآن، اظنني سمعت صوت سيارة في الخارج وقد يتكرم احدهم ويوصلنا».
استدار على عقبيه وهو ينتفض غيظاً:
«لا احتاج الى من يوصلني، لم انجز عملي هنا بعد».
فقالت:
«وكيف عساي ان اعود؟».
«عودي كما أتيت، سيراً على الاقدام، وليت الطريق تطول ثلاثة اضعافها اثناء عودتك».
وانفجرت بوجهه قائلة:
«متعجرف، فظ، عديم الاحساس، اتريد سيلفر ان يمشي حتى تدمى قوائمه؟».
انتصبت اذنا الكلب لدى سماع اسمه وشع الأسى في عينيه اللتين تركزتا على وجه آدم. وبالرغم من استهتاره براحتها فانه لن يترك الكلب للمصير الذي ستلاقيه. رفع الكلب اليه ودسه داخل سترته.

«لا يعرّض هذا الكلب، وما زال عمره تسعة اسابيع، الى مصير كهذا سوى من كان عديم التفكير مثلك. سأعيده معي».

استدار على عقبيه وحدقت تامي به. لا يمكن ان يتخلى عنها. فوكس هول يبعد خمسة اميال.

«آدم، انتظر!».

وانطلقت الى الخارج لتتوسل اليه، وعضت على شفتها من شدّة الألم. ابطأ هو الخطى ولكن ليس من اجلها بل لأن سيارة انحرفت عن الطريق وتوقفت الى جانبه، وبينما كانت تامي تعرج ألماً اخفضت سائقة السيارة الزجاج وأطلّت برأسها.

«آدم، حبيبي، لم اعلم بعودتك. لماذا لم تخابرني هاتفياً؟».

توقفت تامي ونسيت المها وانتصبت قامتها لتسمع رده. نادته الفتاة بعبارة «حبيبي». ثارت كرامتها وساءتها هذه المودة.

عبوس آدم تحول الى ابتسامة:

«مرحباً يا بام. لم يسمح لي الوقت للاتصال بك. عدت بالأمس فقط ووجدت اموراً كثيرة مهملة اثناء غيابي».

«اني ادرك وضعك».

ابتسامة الفتاة المتسامحة جعلت الدم يغلي في عروق تامي.

«اتعدني بالمجيء للعشاء الليلة؟».

وفيما هو متردد ترجلت الفتاة من السيارة، انها تضاهي آدم طولاً، متناسقة القوام مياسة القد، نحيلة الخصر. وبينما كانت تامي تعرج الى الأمام ترددت كلمات العمة فيني في اذنيها:

«عشرات الحسناوات المحليات يتمنين الاقتران بآدم».

وهذه الفتاة احداهن ولا شك. كانت ترمق آدم بنظرات نهمة واصابعها تداعب كم سترته برقّة واهتمام. وصلت تامي اليهما وسمعت رفض آدم:

«انا آسف يا بام، هذا غير ممكن الآن، ربما في وقت آخر».

قفزت تامي بقدميها:

«بل، هذا ممكن يا حبيبي، أتوق للتعرف باصدقائك وهم حتماً يتوقون للتعرف بزوجتك».

خيّم عليهم صمت مشحون، وكأن الشقراء الفاتنة تحوّلت الى صنم، وبانت الصدمة في عينيها الخضراوين وهما تجتاحان وجه تامي متسائلتين عن حقها في اقتحام عالم لم يكن فيه حتى تلك اللحظة سواها، وشعرت تامي بموجات الحقد الموجهة اليها فارتعدت وازدادت اقتراباً من آدم فصدتها منه نظرة باردة تحمل الكثير من الكراهية.

شعرت وكأنها قزم بين ماردين، وانتظرت، عاجزة، منبوذة ومع ذلك مصممة على التشبث بحقوقها.

تمالكت الفتاة نفسها وكانت الصدمة لا تزال مسيطرة على صوتها عندما ضحكت وقالت:

«زوجتك يا آدم؟».

تصافحتا وكأنهما توقعان على معاهدة ملامسة باطراف الاصابع، كمصافحة يتبادلها ملاكمان قبل المباراة.

ترقرق الدمع في العينين الخضراوين ولكن صوت بام كان مرحاً عندما قالت:

«يجب ان نجمع كل اصدقائك، وكما قالت زوجتك يا آدم، انهم يتوقون للتعرف بالعروس سأتصل باكبر عدد ممكن منهم وأدعوهم الى منزلي هذا المساء. هل الساعة الثامنة موعد مناسب».

اجابت تامي عن نفسها وعن آدم:

«شكراً لك، انه مناسب جداً».

«عظيم، وبما ان الجو ينذر بهبوب العاصفة، هل استطيع ان اوصل ايا منكما؟».

كان الجو فعلاً ينذر بعاصفة تهب من عيني آدم وهما تستقران على تامي، وبشجاعة فائقة تجاهلت استياءه وقبلت الدعوة:

«هذا لطف كبير منك. لا يزال آدم مشغولاً هنا وانا اتمنى العودة

الى فوكس هول».

بدا حائراً بين واجبه وبين تردده في ترك تامي لوحدها مع بام ولو للمسافة القصيرة التي تفصلهم عن فوكس هول. نظر الى ساعته وقال:

«بما اننا سنتناول العشاء معك هذا المساء، خير لي ان انصرف الآن يمكن تأجيل العمل».

بعد ربع ساعة انزلتها بام عند عتبة فوكس هول رافضة تلبية دعوتها للدخول متذرعة بالترتيبات التي عليها القيام بها لأجل حفلة العشاء. وبوجه مكفهر وابتسامة جامدة على شفتيها انطلقت بسيارتها عائدة ادراجها.

أخذت تامي نفساً عميقاً قبل ان تنقل المعركة الى معسكر العدو:

«بام رائعة الجمال. يبدو ان علاقتكما حميمة».

لم يتجاهل آدم علامة الاستفهام التي خلفتها عبارتها:

«علاقتنا حميمة فعلاً».

قالها بنبرة وحشية، ثم تابع باصرار:

«ولأوفر عليك مشقة السؤال سأرضي فضولك فأقول لك ان بام هي الفتاة التي كنت أفكر جاداً باتخاذها زوجة لي».

٨- هل يبزغ عليّ القمر؟

بينما كانت تامي ترتدي ملابسها استعداداً لحفلة العشاء ابت على نفسها ان تبدو مكتئبة. لا يمكن الاستخفاف بعرض الزواج الذي كان يلاقي التفكير الجديّ ويبدو أنّ آدم نجا منه باعجوبة، مع انه بعقليته الراهنة لا يقرّ بذلك. ولشعوره بأنه وقع في زواج ليس من اختياره فان الفتاة التي ملكت عليه لبّه تتمتع بفضائل لا وجود لها. جميع الرجال يتمنّون ما لا يستطيعون نيله. جمال بام البارد الذي اصبح بعيد المنال هو الآن سراب في أفق آدم، بينما هي المتحمسة والراغبة فيه والتي في متناول يده اصبح عيبها الوحيد هو كونها سهلة المنال.

ورسمت لنفسها خطة وهي ترتدي ثوبها الحريري المزركش الانيق

الباهظ الثمن، وراحت تحدّث نفسها قائلة: «عليك ببرود الاعصاب يا تامي، لأن رجلك الجبلي يجب ان يكون هو الصياد، تثيره المطاردة وتفتنه المراوغة ويزدري المطيعة، لينة العريكة. اذا كان لا يستسيغ الحلو فأذيقيه المر قليلاً».

هبطت الدرج بتؤدة ودلال وكتفاها الفاتنتان تبرزان من غمامة ثوبها الرقيق ذي الالوان الازرق والاخضر والبنفسجي، وقد طوّق خصرها حزام اثبت أنّ القوام الرشيق الذي تغلفه هذه الغمامة ليس ساذجاً كما يبدو، بينما انتعلت خفين بنيين يبرزان من تحت الثوب الذي يطلق حفيفاً موسيقياً لدى كل خطوة. نفحة عطر منعشة سبقتها لتعلن مقدماً عن حضورها وهي تتجه نحو آدم الذي كان ينتظرها في القاعة وعيناه المكفهرتان مشتتان على شعار العائلة.

فوق نصف دائرة من النجوم ظهرت عبارات باللاتينية. وقفت تامي على رؤوس اصابعها تقرأها من وراء كتفه بصوت مرتفع وبلفظ معظم خاطئ.

«ما معنى هذه العبارات يا ادم؟».

فقال مترجماً:

«سيبزغ علينا القمر ثانية، هذا وعد من الغزاة بالعودة عندما يحين الوقت لجمع المستحقات».

وتذكرت الليلة السابقة، وفي غرفتها التي يغمرها نور القمر كيف انها عرضت على احد الغزاة مستحقاته فرفضها. هل يحقق يوماً الوعد الذي يحمله شعار العائلة؟ وهي، هل يبزغ عليها القمر ثانية؟

ارتعشت عندما هبت الريح حول كاحليها، ومدّت يدها اليه وفيها دثار، آملة في ان تتكىء يداه وهما تلفان كتفيها بالدثار وان يحرك عطرها مشاعره فيدرك اهتمامها به وتجد لديه استجابة، ولكن لمسته كانت عابرة وهو يلف كتفها بالدثار وقال بصوت يغلفه البرود.

«فلننطلق اذا كنت جاهزة».

لا شك أنّ بام امضت ساعات طويلة على الهاتف، هذا ما دل عليه عدد الاشخاص المنتظرين لاستقبالها عندما دخلا القاعة الرئيسية في بيت أصغر من فوكس هول، ولكنه يضاهيه فخامة وقد ازدانت الجدران بصور لآل هاردن تكرّرت ملامحهم في وجوه الذين تجمعوا لتقديم فروض الاحترام لآدم ولالقاء التحية على عروسه.

أول صدمة لتامي كانت عندما اخذت بام بيدها وسارت بها نحو اقرب مجموعة من المدعوين وراحت تجري التعارف بطريقة رسمية، ليدي فوكس، اسمحي لي ان اقدم اليك عمتي آن هاردن، وزوجها عمي طوبي».

ردت تامي كالحالمة على الابتسامات والتمنيات الطيبة والمجاملات، محاولة طوال الوقت جمع شتات افكارها لاستيعاب اللقب الذي اضفي عليها بهذه الطريقة الشائبة. «الليدي فوكس».

لماذا لم يخبرها آدم بذلك قبلاً؟.

كان آدم قد توارى بين الجموع تاركاً لبام امر اجراء التعارف الذي قامت به بكل اجلال، مما جعل تامي عاجزة عن كتمان اعجابها. واخيراً وبعد ان انجزت بام مهمتها، حملت صحنين من الطعام الى ركن هادىء حيث اسقطت القناع عن وجهها.

وبطريقة هجومية سألتها:

«كم طالت فترة معرفتك بآدم قبل زواجكما؟».

فردت تامي بحدة متخذة وضعاً دفاعياً:

«فترة كافية».

«لم تكن فترة كافية لتكتشفي انك ستقترنين بلورد، اجل يا عزيزتي، لاحظت دهشتك عندما عرفت عنك باسم الليدي فوكس، اعترفي انك كنت حتى تلك اللحظة تجهلين ان آدم يحمل لقباً كهذا».

تململت تامي، ليس من السهل خداع بام.

«لا شك ان آدم نسي ان يخبرني، وربما كان مثلي يعتبر هذه الامور غير ذات اهمية في المجتمع المعاصر».

اطلقت بام ضحكة لطيفة:

«ولكن عالمنا لم يتبدل منذ عصور. صحيح اننا عصريون ظاهرياً ولكننا بالأساس مجتمع اقطاعي يولي آدم ذات الاجلال والاحترام اللذين لقيهما اول لورد من آل فوكس وهو حاكم من القطاع الغربي الانكليزي، قدمت له كل عائلة في هذه المنطقة الولاء. وقد ورث آدم عنه المقدرة القيادية والنزعة الى اصدار الاوامر والقسوة عند تدعو الحاجة. ولكن ليس ما يدعوني الى قول ذلك».

كانت ضحكتها تفوق الثلج برودة، تابعت:

«الآ اذا كان اقترانك باللورد فوكس ليس اكثر من كرة رينارد البلورية».

رفعت عينيها متظاهرة بالدهشة لما يبدو على تامي من حيرة واضافت:

«لا شك انك قرأت قصة ايسوب المفروض ان يكون رينارد الثعلب قد ارسل كنزاً ثميناً الى مليكته ولكنه لم يصلها ابداً لانه لم يكن له وجود الا في مخيلة الثعلب المحتال، المفروض ان الكرة البلورية تكتشف ما يجري مهما كان بعيداً وتعطي المعلومات عن اي موضوع يطلبه السائل. يمكن تشبيه زواجك بكرة المعلم رينارد البلورية، وعود كثيرة لا تنفذ».

تحية ساخرة وابتعدت بام تاركة تامي تعمل طعنا بشوكتها في صحن الطعام. كانت دموع المهانة ملحة.

هبت كرامة آل ماكسويل لنجدتها فراحت تجفف دموعها المحتبسة قبل ان تتدحرج على وجنتيها. لو ان ميغ ماكسويل رضخت للهزيمة لما انجبت لزوجها المتعجرف ثلاث بنات وسبعة ابناء.

التفتت تبحث عن آدم فرأت رأسه يرتفع على جميع الرؤوس، فمشت باعتزاز والبريق يشع في عينيها بين جموع آل هاردن الى ان

اصبحت بجانبه. نظر اليها وعقد حاجبيه. ادرك امارات الخطر المنبعث من وجنتيها المتوهجتين فغمرت البهجة قلبها. ليس الزواج قراناً جسدياً فحسب بل هو قران بين عقليتين ايضاً وقد اصبح آدم متفهماً لمزاجها.

وبسرعة مدّ يده وامسك بيدها، يجب الاّ يدرك الحضور الذين يرمقونهما انها خطوة دفاعية لأنه تذكر تهديدها باظهار عواطفها علناً كلما شعرت باهماله لها.

«هل تستمتعين يا حبيبتي؟».

كادت العبارة العاطفية ان تخنقها وهمست برقة وحنان:

«اني استمتع الآن».

وبكل مكر شعرت بانها كوفئت لدى رؤية وجهه يتجهم.

بينما كان رفاقه يتململون ويتبادلون النظرات المتسائلة المحرجة صدحت الموسيقى فتوجهوا ازواجاً نحو القاعة حيث خلت الارض من السجاد لتصبح حلبة فسيحة للرقص. وبنظرة تفيض حقداً وتخفي رغبته في هزها بكتفيها الى ان تسترحمه، امسك آدم بذراع تامي واتجه بها الى خارج الغرفة:

«هلمي بنا نرقص».

انتابها شعور مبهم هو مزيج من الحلاوة والمرارة: ما اجمل التمايل بين ذراعيه في رقصة «الفالس» الشاعرية. واغمضت عينيها محاولة ان تتخيّل متعة كونها بين ذراعي من تحب، ولكن العبارات التي كانت تنصب في اذنيها لم تكن شاعرية.

قال لها بصوت ينم عن اليأس:

«يجب ان تتعلّمي التصرف بتهذيب اكثر وخاصة امام الناس. اعلم انك معتادة على مجتمع يجوز فيه كل شيء»، واظنك تستمتعين بنكتة كبيرة على حسابي ويجب وضع حد لذلك. الاظهار الصاخب للعواطف يحرج اهالي الشمال، ولن اقبل بعد الآن بان تجعليني هدفاً لنكاتك الغريبة، فارجوك ان تكفي عن ذلك وتصرفي

بصفتك...».

قاطعته بلطف:

«بصفتي ليدي؟ ولكنني حتى هذا المساء كنت اجهل اني ليدي. لماذا لم تخبرني؟».

بدا عليه انه مأخوذ، لا مذنب، رقّ قلبها له، من الواضح انه لم يتعمد عدم اخبارها.

وقال معتذراً:

«انا آسف، كان يجدر بي ان اخبرك، ولكنني بالواقع لا اعتبر هذا الامر هاماً. لا نفع للالقاب بالنسبة للمزارع».

ضحكته الساخرة المفاجئة جعلت قلبها يخفق، تابع قائلاً:

«خرافي لا تفهم بالالقاب وسيّان لديها ان كنت اضع على رأسي تاجاً او قبعة من القماش!».

وراحت تقهقه وتراخت القبضة الفولاذية التي كانت تطوق خصرها، وازدادت رقة وهما يرقصان ويضحكان معاً ويستمتعان بالفكاهة المشتركة. وبدا ان الخيط السحري الدقيق الذي يربط بينهما يزداد متانة وهما يقومان بالرقصة تلو الاخرى بدون ان يحاول التخلّي عنها. ربما كان يتظاهر امام الناظرين عندما ادناها منه اكثر ووضع خده برقة على شعرها وامطرها بالابتسامات العذبة مما جعل ركبتيها تعجزان عن حملها. ربما كان يطبّق عليها اسلوب الغزاة وهي لعبة ذكية للبقاء مسيطراً عليها وعلى عواطفها، ولكنها لم تبال حتى ولو كان الامر كذلك. اولاها كل اهتمامه وهذا جلّ ما تريد. كانا يدوران حول حلبة الرقص عندما اعترضت بام سبيلها وقالت:

«آدم، انك تحتكر زوجتك بطريقة معيبة! ديرك بيتي وصل متأخراً ويتحرق شوقاً للتعرف على زوجتك».

استدار آدم برشاقة ليحيي الشاب الواقف الى جانب بام:

«انا آسف».

ومدّ يده:

«مرحباً، ديرك. كيف حالك؟ تامي، اقدم اليك ديرك بيتي، انه من اقرباء بام. ثمة قواسم مشتركة عديدة تجمع بينكما».

قال ذلك بنبرة جافة واضاف:

«بالاضافة الى كونه مثلك ينحدر من اصل سكوتلاندي فان ديرك يمضي معظم اوقات فراغه مستمتعاً بالحياة في المجتمع اللندني».

نظرة تامي الحانقة الى ديرك، اربكته ولكنه تمالك نفسه بسرعة دلت على سعة دهائه، فانحنى بشهامة على يدها الممتدة وقد تركزت عيناه المعجبتان على محياها.

لمست بام كم سترة آدم وقالت:

«الكولونيل جفرسون يبحث عنك ويود محادثتك في أمر هام».

وبينما تركزت نظرة تامي الحزينة على ظهريهما المبتعدين قال ديرك مستفزاً:

«كأنك تودين احياء تقاليد قبيلة سورا في بوشي التي تقضي بان يلتهم زعيم القبيلة الامرأة التي تدان بتهمة شائنة».

استدارت اليه وفي نيتها تحطيم عنفوانه بالاحتقار، ولكن وميض عينيه كان سريع الانتشار مما ارغمها على الضحك.

وقالت مراوغة:

«هل مشاعري نحو الرجل ظاهرة بهذا القدر؟».

فرد بصفاقة:

«فقط لمن هو شديد الملاحظة مثلي، ولكن يدهشني افتقارك الى الحيلة. ظننتك تعلمين ان هؤلاء الشماليين المتخلفين يلزمهم حافز للمطاردة قبل تقديرهم لفريستهم».

رمقت هذا الشاب العابث، الضاحك العينين، المرح الحديث فوجدت انها معجبة به واعترفت قائلة:

«اعلم ذلك، ولكنني لا أجرؤ على الجري خوفاً من عدم اللحاق بي».

قابل صراحتها بابتسامة:

«اسمحي لي اذن ان اقدم نفسي طعماً لاصطياد الثعلب الماكر، ولأؤكد انه سيلتقط رائحة المنافسة بسرعة».

عرض الفكرة بطريقة عابرة وحارت في كونه جاداً ام هي مجرد بادرة. ادراك تامي لعنفوان آدم جعلها تتردد قليلا، ولكنها شعرت بانها في مأمن لعلمها ان ديرك سوف يمارس اللعبة بحسب القاعدة التي تريدها هي، وكان بارعاً في فن الغزل الخفيف ولا يميل الى التورط وابدت موافقتها بطريقة عابثة.

«اتفقنا، ولنر اذا كان فتيل الدعابة سيفجر نار غيرته».

لم يكونا بحاجة الى وضع خطة، فهما خبيران في هذا المجال، وسريعاً ما تسلطت عليهما النظرات الخفية وهما يتنقلان واليد باليد والعين في العين، متقاربين عندما يرقصان، متلاصقين عندما يجلسان، منهمكين في حديث اعتبره ديرك مسلياً، بينما صبغت وجنتا تامي بحمرة الخجل.

«استمري هكذا، اننا نحرز تقدماً».

قال ساخراً ولم ينس ان يطلق ابتسامة رقيقة وهو يمرر اصبعه على حاجبها.

«الرقصة الاخيرة هي التي حركت كل شيء».

وارتسمت على شفتيها ابتسامة تفيض حياء.

«بالغت في ضمي اليك واؤكد ان لهاثنا سمعه من في الغرفة المجاورة».

فابتسم وقال:

«قليلا اذن ويظهر آدم».

ورفع رأسه وهتف:

«صدق حدسي، ها هو قادم».

تشنجت تامي. لن يكون اللورد فوكس مسروراً بسماع اسم زوجته يتردد على كل شفة ولسان، ولكن لا بأس ما دامت النتيجة ستضع حداً لأهماله المخيف، قالت ذلك في نفسها ورعشة داخلية

تخالجها.

بالرغم من جلوسها بمواجهة الجدار فقد احست بآدم يتقدم نحوها وسرت فيها رعدة من الخوف وركزت عينيها على محيا ديرك وقالت:

«هلم بنا نتنزه في الحديقة».

كان احد الابواب مفتوحاً قليلاً لادخال الهواء البارد للراقصين، وبكل ثقة بنفسه تظاهر ديرك بعدم رؤية آدم وهب على قدميه ليرافقها الى الخارج. تأبطت ذراعه وهي نهبة للاضطراب وسمحت له بان يسير بها نحو شرفة لها ادراج تؤدي الى حديقة يغلفها الليل.

ادركت انها اخطأت عندما لفح الهواء المثلج كتفيها العاريتين وارتعد بيتي هلعاً اكثر منها من شدة البرد.

قطع صوت آدم عليهما الحديث:

«هلا احضرت دثاراً لزوجتي يا بيتي؟».

قالها بلهجة آمرة انصاع لها بيتي بسرعة.

استدارت تامي وهي تنوي القول انها مستعدة للعودة الى الداخل، ولكن الكلمات جمدت على شفتيها عندما استقرت سترة على كتفيها. البطانة الحريرية الدافئة لامست بشرتها الناعمة وما زالت رائحة السيجار تفوح منها. لفت جسدها بالسترة وشعرت بالدفء والحماية، ولكن ابدت اعتراضاً لآدم الشامخ فوقها بقميصه الأبيض.

«ستصاب بالبرد يا آدم، فلنرجع الى الداخل! كان خروجي الى هنا حماقة، لم يخطر لي أن الهواء بارد بهذا القدر».

برود نبرة صوته دل على مدى استيائه.

«انا كنت على حق اذن، تبين لك فعلاً ان قواسم مشتركة عديدة تجمع بينك وبين ذاك الماجن».

لاحظت استياءه واستعداده للمشاجرة، فانكمشت على نفسها من الرجل الطويل المتحفز للانقضاض عليها لدى اي بادرة تبدو على

عيناها فتكشف حقيقة امرها. لا شك ان البارون فوكس الأول كان يستجوب اسراه بهذه الطريقة.

اطلقت ضحكة عصبية وقالت:

«كنت اجهل ان ديرك ماجن».

واستفسر بفضول:

«لا شك انكما تطرقتما الى مواضيع عديدة!».

تشبثت بسترته كدرع تحميها من الشيطان المنفعل، وقالت:

«تحدث عن تقاليد القبائل الافريقية، اتظنه جاء الى هنا لهذه الغاية؟».

قالتها وهي تفيض عذوبة ثم اضافت قائلة:

«اعني، ليدرس تفاعلات الانسان البدائي؟».

اطلق عبارة قاسية قائلاً:

«لا تبالغي باستفزازي يا تامي، الاّ اذا شئت التعرّض مرة ثانية للعقاب الهمجي الذي تنزله، نحن معشر المتوحشين، بزوجاتنا المنحرفات».

ارتدّت الى الوراء وقالت:

«اياك ان تلمسني!»

بخطوة واحدة قطع المسافة التي تفصل بينهما:

«اياك ان تثيري غضبي. ربما وجدت لذة في ضربي لك بحيث تطلبين المزيد الآن».

وفي هذه اللحظة ظهر ديرك ومعه الدثار. غير مكترث ظاهرياً ولكنه يراقب حركات آدم بحذر. وقدم اليها الدثار قائلا:

«تفضلي يا حلوتي! من المؤسف ان تخلعي السترة عنك. انوثة المرأة تبرز بوضوح عندما ترتدي ثياب رجل عليها. ما قولك يا آدم؟».

«اقول انه حان لنا ان ننصرف».

وارتدى السترة التي اعادتها له تامي، ثم تأبط ذراعها مبدياً

امتلاكه لها وهو يسير بها الى الداخل. لم تتمكّن من شكر ديرك ولا التلويح له بيدها مودعة، ولكنها اثناء مرورها به لمحت منه طرفة عين وابتسامة وكأنه يقول لها:

«نجحنا يا شريكتي! التقط الثعلب الرائحة وابتدأت المطاردة».

٩- ليل العذاب الطويل

رفعتْ تامي رأسها واسترعى انتباهها ارتطام حبات المطر بزجاج النوافذ. وفي الخارج كان يخيم الظلام والرطوبة والجو المكفهر، ولم تكن الجبال سوى اشكال مطموسة المعالم تتعذّر رؤيتها من خلال المطر. ركزت اهتمامها على عملها يغمرها شعور بالرضى والاطمئنان في غرفتها. ملازمة البيت كانت متعة جديدة عليها. ومع أنّ همّها الوحيد هو ارضاء آدم فانه لم يخطر لها ان تنهمك بهذه الاعمال البسيطة بهذا القدر.

على الطاولة بجانبها كومة من الحرير المطرز، وعلى ركبتيها قطعة قماش رسمت عليها تامي زهوراً واوراقاً وطيوراً غريبة الاشكال. العمة هونور اوحت اليها بهذه الفكرة. في الصباح التالي لحفلة

العشاء في منزل بام، سألت العمة هونور ما اذا كانت الحفلة ناجحة ام لا.

قالت تامي بلا مبالاة:

«اعتقد ذلك، التقيت رجلاً جذاباً ولم انسجم مع السيدات الحاضرات. كان حديثهن يدور حول معارض يرغبن في الاشتراك بها. وسألنني ان كنت انوي الاشتراك في اية مباراة فاخبرتهن اني لا اجيد صنع المخبوزات ولا اعرف شيئاً عن صنع المربيات، وحفظ الفاكهة هو لغز بالنسبة الي، ففاخرن بالتفوق علي مما افقدني صوابي».

فقالت العمة هونور مؤاسية:

«اني ادرك مشاعرك، انهن قاسيات واؤكد انهن شعرن بالارتياح لأنك لا تشكلين اي منافسة لهن. انا وفيني نفوز بمعظم الجوائز الاولى في المعرض الاقليمي منذ سنوات عديدة. فيني ماهرة في صنع المربيات والفاكهة المحفوظة، وانا حالفني حظ نادر في صنع المخبوزات، ولكن وقتنا هذا العام لا يتسع للجهود المضنية التي يتطلبها تقديم عمل ناجح».

اطلقت زفرة حارة وقالت:

«خسارة، منذ خمسين عاماً وكل ما يتقدم به فوكس هول يكون في الطليعة».

شعرت تامي بالحياء فقالت:

«ليتني استطيع المساعدة يا عمتي هونور، ولكن اياً كانت الجهود التي سأبذلها فانها لن تفوز باكثر من ملعقة خشبية».

«لا بأس يا عزيزتي. بالرغم من كل النجاح الذي احرزته وفيني في ما تقدمنا به لم نحرز حتى الثناء في الرسم واشغال الابرة، مهما بذلنا من جهد».

فاجأتها تامي بالقول:

«انا ماهرة جداً في هذين الحقلين».

رمتها العمة هونور بنظرة شك:

«انا واثقة من ذلك ولكن. . .».

فقالت تامي يحدوها الأمل:

«ولكن ماذا؟».

«لا اريد اثباط عزيمتك، ولا اشك بمقدرتك، ولكن لدينا نساء موهوبات جداً ونوعية اشغالهن رائعة. عمة بام، مثلاً، تفوز بالجائزة الاولى في قسم التطريز منذ اعوام، بينما بام ذاتها رسامة موهوبة جداً وبامكانها كسب عيشها من الرسم بسهولة ان شاءت».

وهزت العمة هونور برأسها وقالت:

«لا يا تامي، صوناً لكرامتك لا انصحك بالدخول في مباراة ضد اي منهما».

اثارت اقوالها غريزة التحدي لدى تامي، كان ذلك اشبه بمن يحذر سكوتلاندياً من دخول حلبة يسيطر عليها انكليزي.

قالت تامي بحماس:

«أخبريني اين اجد المواد ودعي الباقي لي».

اطلقت العمة هونور زفرة وقالت على سبيل المسايرة:

«ستجدين كل ما يلزمك في الغرفة الخشبية العلوية من منصة للرسم وزيوت وقماش وكل شيء، وسلة اشغالي تغص بالحرائر للتطريز».

بذوق رفيع وفقت تامي بين اللونين الازرق والاخضر، وهما المفضلان لديها، لتلوين ريش عصفور رسمته على قماش ابيض داكن. قالت تحدث نفسها:

«سوف أريهن، ساعوض والدي ولو لمرة واحدة، النفقات الباهظة التي دفعها لتثقيفي».

وابتسمت اذ تذكرت كيف كانت تستاء من السيدة بيكور معلمتها الفرنسية في اشغال الابرة التي خصصت ساعات طويلة من وقتها لفتاة اعتبرتها موهوبة جداً.

«تجيدين اختيار الالوان يا عزيزتي، وتملكين مهارة الاحتراف في التصميم. داومي على ذلك وستكونين ممتنة لهذه المواهب ذات يوم».

وداومت تامي على ذلك فقط لارضاء ميولها المبدعة، لأخذ قطعة قماش وتحويلها الى شيء جميل. والرسم ايضاً حقق الغاية ذاتها. قطعة القماش الحالية كانت تشكل تحدياً لها، وكانت تعتبر كل صورة تنجزها بمثابة قطعة منها او بمثابة وليد جديد.

مالت برأسها تتفحص عملها وابتسمت راضية عن التصميم الذي يتطور ببطء واتقان. كان ميلها كبيراً الى الانتاج بحيث تساءلت كيف تركت وقت فراغها يذهب هدراً. ولكنها منذ مغادرتها المدرسة لم تجد فترة صمت او وحدة اشعرتها بضرورة قيامها بهذا النوع من العمل. كانت حياتها حافلة بالتفاهات وبجهود بذلتها على امور لم تأت بنتيجة.

طوت شغلها واعتبرت ان ما فعلته اليوم يكفي. لا تزال هنالك ثلاثة شهور لموعد المعرض، الا انها كانت تمضي كل لحظة فراغ اما في غرفتها او تجوب الجبال بحثاً عن بقعة تخلدها على القماش، ولكنها لم تجدها بعد وقد يحالفها التوفيق اليوم. اطلت برأسها من النافذة الى اشعة الشمس الضئيلة وقررت الخروج للبحث، فارتدت واقياً للمطر ووضعت منديلاً على رأسها عقدت طرفيه تحت ذقنها وبخطى مرحة هبطت الدرج واجتازت القاعة.

مرّ بها آدم في سيارته وهي في منتصف الطريق الى البوابة الخارجية. لوّحت له بيدها بطريقة عفوية واستأنفت السير غير متوقعة سماع صوت الفرامل ولا وقع الخطى التي ادركتها قبل بلوغها البوابة الرئيسية المزدانة بتيجان من الحديد المجدول وثعالب ذات اذناب طويلة ترتفع حتى صف من الحراب الحادة. كانت هذه الحراب قديماً تردع اي سكوتلاندي ينتهك حرمة اراضي آل فوكس ولكنها اليوم مشرعة واصبحت شبكة يتسلق عليها العوسج.

كان كل تفكيرها منصباً على تحقيق غايتها، ولم تشعر بان هناك من

يتبعها، وعندما استقرت يد ثقيلة على كتفها وادارتها بسرعة شهقت مندهشة.

«اين تذهبين مسرعة؟ هل الى حيث اعتدت الاختفاء في الايام القليلة المنصرمة؟».

عقدت ما بين حاجبيها. تكلم آدم بغضب شديد على غير عادته.

اجابت وفي لهجتها مزيج من الدهشة والتهكم:

«انا ذاهبة في نزهة اذا كان ذلك لا يضيرك».

«قد يضيرني، وذلك يتوقف على الرفيق الذي تختارين!».

فردت وهي مقطبة الجبين:

«اي رفيق؟».

وقال بصوت اجش:

«غيابك في الاونة الاخيرة كشف امرك. لا تنكري كثرة لقائك ببيتي».

ثمة شعور داخلي نبهها الى وجوب اختيار كلماتها بعناية. يبدو انه افتقد وجودها المزعج فعليها ان تستغل الظرف الى اقصى حد.

اصطبغت وجنتاها بحمرة الانتصار التي تشبه الى حد كبير حمرة الخجل وقالت:

«كنت مشغولة في الايام القليلة المنصرمة، اما اليوم فانوي التنزه بمفردي. اني افكر برسم لوحة. جميع المعدات اللازمة متوفرة في البيت، ولكنني ابحث عن منظر جميل معين، منظر يجتذب البصر والخيال».

تفرس فيها طويلا وقال:

«اعرف مكاناً كهذا، وبما انه يبعد كثيراً عن الطريق العام علي ان آخذك اليه بنفسي».

كان المطر قد الصق بضع خصلات من شعره على جبهته وعلقت قطرات منه في شعره الاسود. وبينما كانت تامي ترمقه تدحرجت قطرتان على انفه فنفضها عنه وبدا نافد الصبر وهو ينتظر اجابتها.

«احقاً تأخذني يا آدم؟».

لم يفه بكلمة بل عاد الى السيارة وادار محركها واستدار بها ثم توقف الى جانبها وقال باقتضاب شديد:

«اصعدي!».

ما كان يجدر بها ان ترتاب بحسن حظها، فهدأت من روعها وصعدت الى جانبه.

حوّل مقدمة السيارة نحو الشمال وانطلق بها مجتازاً سلسلة من القرى الصغيرة في طرقات ضيقة متعرجة غسلها المطر الذي ابتدأ بالهطول صباحاً واستمر الى ما بعد الظهر. اخذت الطريق تتجه صعوداً، ثم استدار عند منعطف حاد حيث اجتاز سياج عوسج متفرق الاوراق فشاهدت تامي في الاسفل البعيد بحيرة تحيط بها جبال ضخمة منحدراتها الحرجية اجمل شكلاً من الصخور الداكنة المحيطة بفوكس هول. توقعت ان يتجه آدم نحو البحيرة ولكنه انعطف يساراً الى موقف للسيارات خال الآ منها.

«في الصيف هذا المكان يكون اشبه بخلية نحل، مزدحماً بالناس ولكن الطقس المتقلب في هذا الوقت من السنة يبقيهم بعيدين».

التفت حولها بحثاً عن المنظر الخلاب الذي وعدها به، واصيبت بخيبة امل. البحيرة ذاتها، بالرغم من جمالها لم تكن خلابة وهي ترتدي حلة رمادية توحي بالكآبة.

قرأ افكارها وقال وهو يترجل من السيارة:

«رويدك، استعدي للمشي!».

اجتاز بوابة صغيرة وسلكا درباً تؤدي الى غابة حيث كانت اكواز الشربين تتحطم تحت اقدامهما، ثم سلكا طريقاً مظلمة تحف بها اشجار الشربين المتشابكة تتخللها فجوات من الاغصان الخضراء المتباعدة. تلك الاشجار الباسقة الشامخة نحو السماء ذكرت تامي بثلة من الحرس يصطفون بدقة تكاد تكون هندسية. سنجاب احمر رابض على غصن وبين براثنه كوز من الصنوبر، انتفض متنبهاً وتسلق

بسرعة جنونية الى الاغصان العليا لدى مرورهما.
وبعد قليل سمعت تامي زمجرة مكتومة فازدادت اقتراباً من آدم، وكانت الزمجرة المشؤومة تزداد وضوحاً لدى كل خطوة يقومان بها. اوقفها قليلا واشار الى حافة الممر الذي ينحدر درجات منحوتة في الصخور. تبعته وهي شديدة الحذر لموطىء قدميها، ثم نظرت بسرعة الى الاعلى حيث انفرجت غمامة رمادية وكأنها ستارة انشقت لتكشف عن شلال من المياه البراقة.
لجمتها الرهبة، فوقفت تستوعب هذا المشهد الأخّاذ. كان تدفق المياه يصدر هديراً وغمامات من الرذاذ تؤلفه اطنان المياه المرتطمة بغضب بالصخور الصوانية. جسر بدائي يمتد فوق المصب الضيق. وعندما جذبها آدم الى الوسط تشبثت بسياج حديدي دقيق ونظرت الى الأسفل، وساورها شعور غريب غرابة تلك المياه المتدفقة. صدر عن الجسر صرير تحت ثقلهما ولكن آدم بدا هادئاً فكبتت خوفها.
تساقط الرذاذ حولها كالضباب منديّاً بشرتها ومضيفاً الى شفتيها المنفرجتين رطوبة.
«عندما تشاهدين اكبر الشلالات السكوتلاندية او شلالات جبال الالب فان شلالاتنا المتواضعة تشعرك بخيبة».
قال ذلك بصوت مرتفع يطغى على هدير المياه وتابع قائلاً:
«مئات الاشخاص يأتون الى هنا صيفاً عندما يكون الشلال مجرد قطرات من الماء، ولكنه في يوم كهذا يشكل افضل مشهد لقلة ضئيلة من الناس المدركين».
بكل هذا الرذاذ المتناثر حولها لا عجب الاّ ينتبها لقطرات المطر الاولى وهي تتساقط عليهما. وفجأة اخذت السماء الداكنة تفرغ ما فيها على الزوجين الواقفين على الجسر وغير المباليين بهطول الامطار الغزيرة. هطل الطوفان بمرح شيطاني، وما هي الاّ ثوان حتى بلغ البلل بشرتيهما.
امسك آدم بيد تامي وراح يجري ولما بلغا الضفة دفع بها الى تحت

شجرة وارفة حيث وقفا يلهثان. بدت وكأنها اجتازت الشلالات وهي في كامل ملابسها التي تبلل كل خيط منها.
وكانت المياه تنحدر من شعرها الى رموشها ومن ثم الى وجنتيها. كانت تلهث وتبعد قطرات المطر عن عينيها وعندما نظرت الى محيا آدم القلق انفجرت ضاحكة.
بعد لحظة من الحيرة راح يشاركها الضحك. كان قد أعدّ نفسه للتأنيب وحتى لسيل من الشتائم ولذلك كان في ضحكة انفراج واعجاب بالغرسة الرقيقة التي نبتت في ارض صلبة غير مألوفة.
لف ياقتها حول عنقها وقال:
«قليلات من اللواتي اعرفهن يدركن متعة البلل حتى البشرة، وهي متعة شبيهة بسرقة حديقة للزهور او بتحطيم الصحون. اتذكرين وانت طفلة كيف كنت تمشين في المستنقع منتعلة حذاءك لانه قيل لك الاّ تفعلي ذلك؟».
اومأت برأسها وعيناها تشعان:
«الثواني الاولى فظيعة ولكن ما ان يتبلل المرء كلياً حتى يتجاوز مرحلة البؤس ويبدأ بالاستمتاع بالبلل، وبما اننا الآن في هذه المرحلة الرائعة لماذا لا نشق طريقنا الى السيارة تحت الاعصار؟ ذلك لن يزيدنا بللاً».
وكولدين صغيرين امسك احدهما بيد الآخر وركضا في العاصفة. يرشفان قطرات الماء متحديين الطبيعة، ولما واجهت الطبيعة تحديهما بامطار اكثر غزارة ازدادا ابتهاجاً.
عندما بلغا السيارة ارتميا في داخلها كتلة من المرح. امسك آدم بمقود السيارة وتردد قليلا ثم استدار الى تامي وعانقها بحرارة، ونظرت اليه بعينين متسائلتين فقال موضحاً:
«هذا العناق مكافأة لك على روحك الرياضية».
لو انها تلقت وساماً لما كانت اكثر فخراً مما هي الآن.
همست قائلة:

«شكرا!».

وراودتها رغبة شديدة في البكاء.

ادار محرك السيارة بسرعة وانطلقا ينهبا الارض نهباً.

استيقظت تامي في حوالى منتصف الليل ترتجف برداً، وشعرت بالحرارة تلهب جبهتها وبألم حاد في حلقها. قبل ذلك بأربع ساعات، كانت العمتان قد حملتاها الى الطابق العلوي، ووضعتاها في حمام ساخن، ونقلتاها منه الى الفراش، ولازمتاها الى ان شربت كوباً من الحليب الساخن بعد معارضة شديدة منها. لدى بلوغهما فوكس هول عنفت العمة هونور آدم اذ رأته يحمل زوجته المتسخة المبللة ويجتاز بها عتبة الباب. وحتى العمة فيني بعد ان شربت تامي الحليب واتكأت على وسائدها تمتمت ببضع عبارات تلوم بها ابن اخيها.

«لا افهم ماذا يدور بخلده، لا شك انه فقد صوابه».

اجتاحت تامي رعشة قوية فهبت تبحث عن معطفها البيتي الذي يكون عادة على السرير عند قدميها. كانت تشعر بضعف هائل وبألم حاد في حلقها كلّما بلعت لعابها. انزلت رجليها عن السرير ولاحظت أنّ النار الضئيلة في الموقد غير فعالة في الغرفة الباردة.

سارت متعثرة نحو الباب الفاصل بينها وبين آدم. ساءها الشعور بأنها تسبح في الهواء، وازعجتها موجات الضعف الحارة والباردة التي تجتاح جسدها.

صرخت:

«آدم!».

هالتها الحشرجة التي صدرت عنها، كرّرت المحاولة ولكن صوتها كان اضعف من ان يخترق الباب السميك فراحت تقرعه بقبضة يدها وتنتحب بضعف ثم سقطت ارضاً وقد نفدت طاقتها.

نهض آدم مشعث الشعر، معطفه ملقى باهمال على كتفيه وفتح الباب وكاد ان يتعثر بالجسد الطريح على العتبة.

«رباه، تامي!».

سمعت هذه العبارة وهي في شبه غيبوبة قبل ان تمسك بها ذراعان قويتان وتضمانها بحرارة الى صدر قوي. القت بثقلها عليه وهي تهمس، بكلمات الامتنان ومالت برأسها على كتفه. حملها الى سريرها بلطف ولما حاول الانسحاب همست معترضة وتشبثت بكمه متوسلة بصوت يكاد لا يسمع:

«لا تتركني يا آدم. . . اشعر ببرد شديد».

«اني مضطر لتركك ريثما استدعي العمتين».

وكان جوابه جاء من مكان بعيد واليأس يسيطر على صوته. خوف اعمى يسيطر على رجل قوي يواجه لأول مرة في حياته عجزاً في تقرير السبيل الافضل الذي يجب ان يسلكه.

وفيما هو متردد اخذت اسنانها تصطك وهزها ارتعاش فظيع انتهى بانتفاضة عنيفة بينها تشبثت اصابعها بثنايا معطفه.

«ضمني اليك يا آدم. . . ضمني!».

ضمها الى صدره وكأنها طفلة صغيرة راح يهدهدها بين ذراعيه ويهمس اليها بعبارات المؤاساة. وكانت لا تزال بين ذراعيه عندما انحنى قليلاً الى الامام الى ان استقر ظهرها على الوسائد وراح يلفها بالاغطية بغية جعلها في غلاف محكم، ولكنها قاومت عندما حاول الابتعاد وأبت ان تترك معطفه.

بحنان كبير ازاح خصلة شعر عن حاجبها الرطب وقال:

«افهميني يا تامي، لا استطيع ملازمتك، سأستدعي العمتين للسهر عليك».

«كلا، اريدك انت».

تأثر كثيراً عندما انطلقت الكلمات الحزينة بألم من حلقها، ثم راحت تداعب شعره باصابعها المضطربة.

وبصوت اجش كصوتها توسل اليها قائلاً:

«انا لست من حديد يا تامي».

ولكن شدة مرضها شلّت تفكيرها. يكفيها انها قريبة جداً منه،

مطمئنة بين ذراعيه. انها تنوي الاحتفاظ بما احرزت بعد نضال مرير ولا تريد العيش بدونه. قربه منها يقيها الرعشات التي تنشر البرد في كيانها بين حين وآخر.

نجحت وهي ضعيفة حيث فشلت وهي قوية.

استسلم للأمر الواقع وضم جسدها وراح يهدهدها لتنام وهو يهمس في أذنها بعبارات عاطفية رقيقة من دون ان يكشف شيئاً من اللهب الازرق المنبعث من عينين كانت تبحث فيهما عن الاطمئنان في ليل عذابها الطويل. وكانت تسعى الى الدفء وهي بجانبه فعانقته بحرارة وراحت تصب في اذنيه عبارات عاطفية غير مترابطة بينما تركزت عيناها على لوحة في اطار معلق على الجدار المواجه لسريرها وكانت اللوحة تحمل العبارات التالية:

«خلق الله الرجل ووجد ان وحدته غير كافية فأعطاه رفيقة لتزيد شعوره بالوحدة».

١٠- انت مصدر ازعاجي

جاء ديرك لزيارة تامي حالما ارتأت العمتان ان حالتها الصحية تسمح بذلك. لم يكن هو اول زائريها، كانت بام قد جاءت في اليوم السابق لتلقي على منافستها نظرات تفيض شفقة.

شفاؤها استغرق اكثر من اسبوع وامضت اسبوعاً آخر في طور النقاهة، وكانت آثار المرض تتمثل بالضعف الذي تعرب عنه دموع تتدحرج من عينين كئيبتين وبنوبات ارتعاش توهن جسدها، وبالعرق المتجمع فوق حاجبيها. كانت هذه الاعراض اكثر ما تصيبها كلما رأت آدم. كان يقطب جبينه لشعوره بان وجوده يزعجها فيغادرها بعد سؤال سريع عن صحتها وعيناه الحائرتان تتساءلان عن سبب ترددها في الانفراد به.

شاءت ان توضح له نوبات الحياء التي كانت سبباً لهذا الجفاء. لم تتذكر بداية مرضها، كل ما تذكره هو انه كان معها وانها احرجته، وعندما حاولت الاستفسار منه عن ذلك اسكتها، ولكن حمرة الخجل التي تولته اكدت لها صحة ظنها، ومنذ ذلك الحين والارتباك رفيق جلساتها.

اي حدث مؤلم يختزنه عقلها الباطني يسبب لها هذا الارتعاد كلما فصلت بينهما مسافة صغيرة؟ لماذا تنكمش حياء مشيحة ببصرها عن العينين الزرقاوين اللتين تتغلغلان في أعماق روحها؟

تامي ماكسويل خجولة! كم ستضحك رفيقاتها اذا علمن بذلك! كم تثور ميغ سلفتها النشيطة من حيائها المشين اثناء وجود فوكس الأفاق.

مجيء ديرك كان نجدة لها. دخل وكله ثقة بالنفس، فارتفعت معنوياتها فوراً وقال باسماً:

«الحلو للحلوة».

والقى اليها بكيس من السكاكر.

«صعقت صاحبة المتجر عندما طلبت فاكهة مجمدة».

وراح يقلدها:

«هذه الفاكهة وعلب الحلوى لا يطلبها الناس الا في المناسبات الخاصة كمناسبة عيد الميلاد».

كان انفجار تامي بالضحك اشبه بانفجار سد مائي، بضع قطرات تتدحرج على الحصى وتدريجيا تزداد تدفقاً الى ان تصبح سيلاً جارفاً، ولم تستطع السيطرة على نفسها وهو يدور في الغرفة مقلداً العانس ذات الملابس الضيقة التي تدير المتجر في القرية.

قالت وهي تشهق:

«كف عن ذلك، ارجوك».

وراحت تشد خاصرتها بيدها:

«انك ماهر في التقليد ولكن كفى، سأنفجر من الضحك».

عاد الى رزانته وتقدم نحوها واستند بيديه على جانبي مقعدها وانحنى ليتفحص وجهها الشاحب.

وهمس قائلا:

«عينان رزينتان. لدى دخولي خيل اليّ انك نسيت الضحك. يلزمك حفلة مرح تزيل الغم من هاتين العينين الواسعتين. اتستطيعين الذهاب الى حفلة رقص ومرح؟».

اطلقت زفرة وقالت:

«اجل، ولكنني قد لا اقدر على تحمل مشاق السفر».

«السفر؟».

وكاد ان يفقدها اعصابها بنظراته التي تفيض توبيخاً. وعندما استطاعت السيطرة على نفسها قالت:

«الى لندن، اليست هي التي ستقصد؟».

«انهم احياناً يقيمون الحفلات هنا في هذه الغابات. وعلمت انهم يستعدون لاقامة حفلة. هذه الحفلات تقام عادة في الخريف قبل ان تبدأ مشاق الشتاء، ولكن لسبب اجهله قرر بعض الشبان اقامة حفلة هذا الاسبوع قبل الانهماك كلياً بالعناية بالخراف».

فقالت بفرح ظاهر:

«هذا ممتع. ما هي حفلة المرح بالضبط؟».

«انه اجتماع للاصدقاء والجيران لاحراز اكبر قدر ممكن من الفرح لفترة محدودة، وهذا الاجتماع يقام لليلة واحدة فقط، ولكنني سمعت ان ثمة اجتماعات تدوم اسبوعاً. كل ما يلزمنا هو وسيلة للانتقال الى مكان الاجتماع، ملابس عادية وقدرة على السهر والرقص وقد يطلبون اليك ان تغني. ما قولك، اترغبين في ذلك؟».

«اجل، بكل تأكيد».

بحركة سريعة لمس انفها بطرف اصبعه:

«كوني مستعدة غداً مساء، سأجيء لآخذك في الثامنة».

عندما انصرف ديرك اخذت ترتب افكارها، وبعد تفكير عميق

قررت ابقاء الامر سراً. ستقيم العمتان الدنيا وتقعدانها بينما آدم لا يبالي بمخططاتها. ولكنها لم تستطع مقاومة رغبتها في السؤال فيما كانت تتناول الشاي مع العمة هونور:

«هل حضرت حفلة مرح؟ سمعت ان هذه الحفلات مسلية جداً».

«بكل تأكيد حضرتها».

ضحكت العمة هونور ووضعت فنجانها واتكأت في مقعدها بطريقة اوحت لتامي انها تمهيد لسرد الذكريات:

«عندما كنت شابة كانت هذه الحفلات تدوم من نهار الجمعة حتى ليل الاربعاء من دون انقطاع، وكانت كل حفلة تبدأ بصيد الثعالب، يجتمع الصيادون في صباح يغلفه الضباب يرتدون معاطف زهرية اللون وعند اقدامهم يربض قطيع من كلاب الصيد المتحمسة، والاشجار تكسوها الوان الخريف. وغالباً ما تكون هنالك لسعة من البرد تبقينا في حركة دائمة، وطبقة من الثلج تغطي قمم الجبال الشاهقة. كان البعض يتبع الصيادين على الاقدام وينظر الى الجبال بالمناظير المكبرة، وفي نهاية النهار تزأر نار ضخمة في مدفأة النزل حيث تبدأ الاحتفالات فوز عودة الصيادين. اما العمل الحقيقي للتجمع فكان يجري طوال النهار في الجهة الخلفية للنزل».

«وما هو العمل الحقيقي للتجمع؟».

«انه اعادة الخراف الضالة التي شردت في الجبال خلال العام وتسليمها الى اصحابها رسمياً، هذه هي الغاية من التجمع، المزارعون من المناطق المجاورة يجمعون خرافهم الضالة ويضعونها في زرائب خلف النزل حيث يتولى راع مسن طوال النهار تصنيفها. معظم الرعاة المسنين قادرون على تمييز الخروف بأسرع مما يميزون انساناً».

«اتعنين انهم فعلاً قادرون على تمييز خروف عن آخر؟ ولكن كيف؟».

«بواسطة العلامات التي تحملها الخراف. لكل مزرعة علامتها المميزة. يقولون ان هذا العمل يتوارثه الابناء عن الاباء منذ عهد الفايكينغ الذين غزوا هذه الجبال واستقروا عليها لأن موقعها ذكرهم ببلادهم، اذا كانت اذن الخروف مقروضة يقطعون طرفها كلياً، اما اذا كانت الاذن مشطورة فتكون ممزوقة حتى منتصفها، واذا كانت مفرضة فيكون الفرض بشكل رقم سبعة، واذا كانت مقروضة مفتاحياً فيكون القرض بشكل مربع، وبما انه لكل اذن طرف علوي وآخر سفلي ولكل خروف اذنان اثنتان فيمكن جعل العلامتين متطابقتين، كما ان هنالك الحروق في القرون او علامات مميزة في مختلف انحاء جسم الخروف. ولكن الرعاة المسنين لا يحتاجون الى رؤية العلامات بل يكفي ان يلقي احدهم نظرة واحدة ليقول:

«هذا الخروف لطوم لوثر او هو خاصة يون غلنديننغ».

تولى تامي حماس كبير فنسيت حذرها وقالت:

«كم هذا فاتن، اتحرق شوقاً لرؤية ذلك».

«لا بدّ لك من الانتظار، حفلات المرح لا تقام الاّ في الخريف. كثرة العمل في هذا الوقت من السنة لا تسمح للناس بانشاء عشرين بيتاً من الشعر في الساعة الثالثة صباحاً».

فقالت تامي متلعثمة:

«الا يمكن ان تكوني مخطئة؟ سمعت انهم ينوون اقامة حفلة مرح هذا الاسبوع».

ضمت العجوز شفتيها وقالت:

«يتمنى البعض ان يكون عيد الميلاد كل شهر، وان تقام حفلة مرح كل اسبوع. كلا، انت مخطئة ولا شك. المعروف عن بعض الشبان انهم يقيمون حفلة مرح خاصة بهم وهي لا تقارن بالحفلات الحقيقية».

غيرت تامي الموضوع قبل ان تساور العجوز الريبة، ولكنها بقيت

عرضة للقلق طوال النهار، ولو امكنها ان تبعث لديرك برسالة تخبره فيها انها غيرت رأيها لفعلت.

صعدت الى غرفتها تحدوها رغبة في اكمال اشغال الابرة التي اهملتها في الاسبوعين المنصرمين. وكانت قد استقرت في مقعدها بقرب النافذة عندما دخل آدم بعد ان قرع الباب بحياء.

بدا وكانه في مهب الريح، شعره الاسود مبعثر، نظرته جامدة كالجليد الذي يغطي قمم الجبال حيث امضى نهاره. كانت ملابسه عادية، سترة سميكة من الصوف وسروال لركوب الخيل وقد عقد وشاحاً حريرياً تحت ياقة قميصه المفتوحة. قامته المنتصبة ورأسه الشامخ وملامحه العبوسة ابرزت اعتزازه بسلالته.

قالت في نفسها:

«جاء البارون فوكس يتفقد مصدر ازعاجه».

وتشبثت بغيظها لتقاوم موجة الضعف العذبة التي اعترتها. وكادت ان تمنعها من التنفس. دست قطعة التطريز وراء الوسادة ونهضت من دون ان تتأثر بظهوره المفاجىء.

«هل تريد شيئاً؟».

ارتفع حاجباه دهشة واستقرت نظرته على وجنتيها المتوهجتين ولا، ثم على الوسادة التي جعلتها تخبأ وقد ضاقت عيناه ريبة.

«هل اخترت وقتاً غير مناسب للزيارة؟».

كان الرد الناعم مشحوناً بالاسئلة فتابع قائلاً:

«لم هذا الاحمرار؟ لم هذه الوقفة الدفاعية؟ ما الذي تخفيه الوسادة؟».

اتجه نحوها وقرأت تامي افكاره وتقدمت تسد عليه الطريق مصممة على ابقاء امر القماش الذي طرزته باحلامها سراً حتى يحين الوقت المناسب لمفاجأته واتباعه بما يثبت مهارتها غير المتوقعة.

ضحكت بعصبية وقالت:

«جميل منك ان تمنحني شيئاً من وقتك خاصة ان موسم العمل

يداهمك. اترغب في فنجان من الشاي؟ منذ قليل شربت والعمة هونور ابريقاً منه ولكن بامكاني ان اعد لك فنجاناً».

فرد بعبوس:

«كلا، شكراً».

ثم فاجأها بالسؤال:

«هل جاء بيتي الى هنا؟».

فاجابت متلعثمة:

«أجل، زارني ليرفع من معنوياتي وحمل اليّ هدية صغيرة».

واحتبس الكلام في حلقها عندما اتجهت نظراته نحو الوسادة. راودتها رغبة في الضحك. خيل اليه انها خبأت هدية ديرك لتفاخر بها فيما بعد على انفراد. ولم تحاول اطلاعه على الحقيقة.

وكتلميذة ساذجة سألت متلعثمة:

«هل من سبب معين لزيارتك؟».

رمقها آدم طويلا وقال:

«اتيت لزيارتك لانك زوجتي وكنت مريضة وكانت حماقتي هي السبب في مرضك. اتدهشك رغبتي في الاستفسار عن صحتك يومياً؟ كل زوج يعرف واجباته يفعل ذلك».

«يعرف واجباته!» وهمست في نفسها بمرارة، انه لكذلك فعلا، لولا تعلقه بالواجب وادراكه لالتزاماته لما كانت هي الآن البارونة فوكس.

قالت بصوت حاد:

«انا بخير، لا تدع حالتي الصحية تعرقل اعمالك بعد اليوم».

واشارت بعينيها نحو الباب، ولكن آدم اذهلها بتجاهل اشارتها وجلس على مقعد قريب.

اطبقت اصابعه الفولاذية على معصمها وشدها اليه قائلاً:

«تعالي، دعيني انظر اليك».

واظهر سيطرة اذهلتها وجعلتها تجثو بجانبه وجذبها الى الامام وانحنى برأسه الى ان التقت عيونهما. كانت في ما يشبه الغيبوبة عندما شعرت بابهامه يلامس وجنتها فارتعدت عندما خاطبها بصوت يفيض حناناً.

«انت رائعة الجمال وقد خلقك الله للحب».

اقترب رأسه منها، ولفحت انفاسه الحارة وجنتها، على شفتيه طيف ابتسامة وفجأة طرأ تحول غريب على مشاعرها جعلها تهب على قدميها وتحول الحنين الجارف الذي يجتاحها الى احساس اقوى من الرغبة في الاستسلام صاغرة بين ذراعي الرجل الفظ الذي ورث شخصيته عن اسلاف كتبوا اسماءهم بالسيف دونما رادع يردعهم. كانوا ذوي امزجة متقلبة كمزاج آدم الآن، انه عطش ولا ترويه سوى امرأة. عرفا الحب والحنين في اقصى درجاتهما ولكن تامي اكتشفت انها لا تريده بغطرسته بل بحبه الخالي من كل شائبة وانها تفضل البقاء من دونه على نيل جزء منه فقط.

سيطرت على نفسها وحبست دموعها وقالت:

«هل لك ان تنصرف الآن؟».

نهض على قدميه بطوله الفارع. عدم ظهور الندم عليه اثبت حكمة تصرفاتها.

«ما دامت هذه مشيئتك».

قالها ببرود وسار نحو النافذة وسرح ببصره على القمة المنتصبة كحارس فوق منزله.

وافصح عن افكاره بوضوح عندما سألها ببرود:

«اتتوقعين ان يكرر بيتي زيارته؟».

اطلقت تامي زفرة حارة مرتعدة وهي تدرك مدى خطورة لعبتها.

وكذبت قائلة:

«كلا، لم نتخذ ترتيبات حاسمة».

استدار اليها آدم وعلى شفتيه ابتسامة تفيض سخرية وقال:

«عظيم!».

اتجه اليها ثم قال:

«اؤكد انك تجدين فيه رفيقاً مسلياً فانتما من بيئة واحدة، وتملكان القيم ذاتها.

واظنك تدركين انّ لنا منصباً علينا المحافظة عليه في هذا المجتمع. انت وانا، اللورد والليدي فوكس، من فوكس هول وهو منصب مرموق تربطه التزامات معينة، وبما انك تحبين الاقوال السامية فاني سأغادرك بعد ان اترك لك قولا مأثوراً تمعنين التفكير فيه:

«من ينَل الكثير يطلب منه الكثير».

بقيت تامي محدقة لفترة طويلة بالباب الذي اغلقه وراءه. لا شك ان كلماته المعسولة كانت تنطوي على التهديد.

«اما ان تنصاعي والا...».

مرة اخرى فرض بارون المستنقعات القانون على فتاة ثائرة من آل ماكسويل.

ثمة باعث دفعها الى الغرفة الخشبية حيث كانت منذ بضعة ايام تبحث عن ادوات للرسم، فعثرت على لوحة زيتية يعلوها الغبار ووجهها الى الحائط وكأنها وضعت هكذا عقاباً. ثمة ما اثار اهتمامها في الوجه المرسوم على القماش وعندما رفعتها الى النور ادركت ما هو.

نظرت الى الصورة وكأنها تنظر الى نفسها.

كان شعر ميغ ماكسويل كشعرها هي، الا انه يفوقه طولاً وعلى شفتيها ابتسامة لامرأة لم تعرف الندم، ولم يكن في العينين المرحتين ظل للجفاء او العار.

اطلقت تامي زفرة يأس وقالت تطلب الارشاد: «ماذا تفعلين يا ميغ لو كنت مكاني؟ هل تتحدين مولاك وسيدك لاستثارة اهتمامه،

ام تكونين وديعة مطيعة؟».

لم تتغير ملامح اللوحة ولا صدر جواب عن الشفتين الجامدتين، الآ ان ضحكة ساخرة رنت في مسامع تامي عندما انطلقت نفخة ريح من المدخل المفتوح وتلاعبت ببعض الاوراق في طريقها، خيل الى تامي انها تسمع نغماً موسيقياً، ترديداً خافتاً لأغنية شعبية قديمة تتغنى بها العمة هونور دائماً:

عندما يريد الجمال سجاناً.
وعندما يبدأ القتال والغزو
نحن، ابناء الحدود
لا تزال لنا قلوب الغزاة.

١١- شجرة الاعدام

في الثامنة الا ربعاً من المساء التالي تسللت تامي من الباب الخلفي لفوكس هول وسلكت طريقها بحذر في ظلال الاشجار المصطفة على جانبي الطريق نحو البوابة الرئيسية.

لا شك ان فتيات الامس كنّ يتصرفن هكذا، متحدّيات غضب عائلاتهن للقاء حبيب ممنوع. هذا ما خطر لها وهي تفكر بالجبن الذي اعتراها بالرغم من عنادها وتصرفها الجنوني الطائش. كانت العمتان قد أوتا الى غرفة الجلوس، وكان آدم مشغولاً في مكتبه بانجاز بعض الاعمال الكتابية التي هي آفة بالنسبة لحياة المزارع. استأذنت تامي متذرعة بالصداع وصعدت الى غرفتها، وما ان دخلتها حتى راحت تستبدل ملابسها فارتدت قميصاً صوفياً احمر وبنطلوناً اسود، كان

ديرك قد اكد لها انهما مناسبان للسهرة. ولكن الشجاعة خانتها لدى التفكير بالاسئلة والاعتراضات التي ستنتج عن مجيء ديرك الى البيت، ولهذا لجأت الى التسلل من الباب المؤدي الى الدرج الخلفي.

برزت انوار السيارة من الظلام لحظة وصولها هي الى الطريق الرئيسية، فراحت تلوّح بيديها بانفعال شديد لتلفت انتباه ديرك. صرير الفرامل مزق اعصابها المتوترة فألقت نظرة وجل حولها ثم اسرعت وفتحت باب السيارة وانسلت الى داخلها.

انفجر قائلا:

«ماذا تعنين بظهورك المفاجيء على هذا النحو؟ لو لم ابطىء للدخول في الممر الضيق لصدمتك بالسيارة».

ولكن غضبه تحول الى قلق عندما رأى الخوف على محياها فقال:

«اني آسف، انت ايضاً تولاك الفزع. لماذا وقفت في وسط الطريق؟ الم تستطيعي انتظاري في البيت؟».

صفقت الباب بعنف وقد اعتراها الخجل وهي توهمه ان الشوق دفعها الى هذا التصرف.

قالت كاذبة وهي تلهث:

«اني مستعدة منذ فترة طويلة فشئت ان امشي الى هنا لمقابلتك توفيراً للوقت».

شعرت بالارتياح عندما ابتسم وادار محرك السيارة.

«كم متلهفة انت، هذا لا يدهشني وانت ربيبة لندن فان هذه الحياة الجبلية تفزعك. ان هؤلاء الناس ذوي الاكتفاء الذاتي يكرهون المجتمع؟ هل هم وحوش ام هم فوق مستوى البشر؟».

ولشدة دهشتها استنكرت تامي هذا الانتقاد اللاذع:

«انهم بعكسنا غير انانيين، لا يعتذرون ولا يتذرعون بالاعذار لاختيار رفاقهم».

رمقها بنظرة حائرة وقال بلهجة جافة:

«قد يكون لذلك علامة باختيارهم العيش في عزلة وسن القوانين الخاصة بهم».

فأجابت تدافع عنهم:

«انهم من سلالة الغزاة».

وقال باستياء:

«مثلنا. لا تحذي حذو العديد من مواطنينا السكوتلانديين فينشأ لديك مركب نقص حيال جيراننا الاقطاعيين الانكليز. نحن، معشر السكوتلانديين، مرموقون ولولا ارتباطنا بانكلترا لعشنا كأمة لها ثقافتها الخاصة وقوانينها ومعاهدها. لعصور طويلة قاومنا ابتلاع الانكليز لنا. تذكري ذلك يا تامي كلّما شعرت بخطر طغيان غطرسة آدم على معنوياتك».

كان ذلك كافياً لانتشالها من هوة اليأس التي غاصت فيها، فشمخت برأسها وبان في عينيها بريق غريب عندما قالت بحدة:

«ما كان آدم ليوافق على خروجي معك، ومع ذلك فقد خرجت».

انطلقا بالسيارة ما يقارب الساعة صاعدين تدريجياً في البداية، ثم اخذ المحرك يعمل جاهداً وهما يصعدان ببطء. كانت اشعة القمر الذهبية تمتد عبر القمم وتطل من بين الصخور فتصبغ المياه الرقراقة المتدفقة في اقنية شقتها في الصخور الصوانية وتنساب تحت الجسور وتختفي، ثم تظهر ثانية متراقصة في انحدارها الى البحيرة البعيدة في الأسفل.

وفيما كانت السيارة تطلق أنّاتها الاخيرة في الصعود انبسطت الطريق امام مبنى منخفض لنزل قديم، الانوار تتدفق من نوافذه.

ترجلت تامي من السيارة واتجهت نحو مدخل النزل مسترشدة بالضجيج وبخيط من النور، بينما داعبت انفها رائحة الزهور البرية.

كان النزل يزدحم بشبان صاخبين يطلقون الضحكات عالياً، وبينما كان ديرك يشق طريقه نحو المقصف، تعثر شاب يحمل صينية

عليها اكواب المرطبات فيما كان يمر بالقرب من تامي فتشبث بكتفها فجعلها ترتطم بالجدار، واطلق ضحكة واستأنف طريقه متعثراً من دون ان يعتذر لها، فعضت على شفتها واقرت بحكمة العمة هونور. لم تكن معتادة على معاشرة هذا النوع من الناس، مزيج للهجات متعددة لم تكن لأهالي الجبال. كان معظم الشبان يرتدون ملابس المشي، قمصاناً صوفية سميكة تحت سترات زاهية الالوان وسراويل سهلة الاستعمال حشرت اطراف ارجلها في جوارب صوفية برزت من احذية جلدية عالية ذات ازرار معدنية لماعة. كانت حقائب الصيادين مكدسة على جدران بيضاء وعليها صور قديمة للصيادين وبجانبها أبواق نحاسية طويلة وجلود حيوانات قديمة مختلفة. اباريق من الصفيح تتدلى من السقف ينعكس عليها اللهب المتصاعد من كومة حطب ضخمة في وسط مدفأة مجوفة تحلقت حولها مجموعات من الفتيات والشبان جلسوا متربعين على الارض.

وفيما كان ديرك يقترب حاملاً كوبين من المرطبات راحت احدى الفتيات تداعب أوتار قيثارة. تجهم ديرك وهو يعطيها كوبها وقال:

«أنا آسف يا تامي، يقول صاحب النزل ان هذا المهرجان تقيمه مجموعة من الطلاب الراغبين في تبديد اموالهم ولا يمكن تشبيهه بحفلات المرح الاصيلة. عندما عارضت احد منظمي المهرجان بلغت به القحة حد القول:

«ما بك يا صديقي؟ الحفلة على هذا النحو افضل من حفلات الصيد».

وبدا عليه غم شديد جعل تامي تنفجر ضاحكة فشاركها الضحك وهو حائر.

«انت من حجر يا تامي، لم تتفوهي بكلمة لوم. ما رأيك، هل نشاركهم الحفلة بعد ان اصبحنا هنا؟».

التفتت الى الطلاب المتراحمين. منذ فترة كانت في احدى حفلاتهم مصممة على الاستمتاع بكل ما تأتي به الحياة. كانت الفتيات

صريحات بشوشات وقلة ضئيلة من الشباب كانت تسعى وراء الافراط في المرح.

اومأت برأسها موافقة بعد ان سمعت صوت المغنية يرتفع ناشراً البهجة وقالت:

«اجل، لم لا؟ يمكننا البقاء ساعة على الاقل».

ولكن الساعة امتدت الى ساعتين ثم الى ثلاث الى ان اندمجا في الجو المرح المزدحم والرفقة الطيبة والجو الدافىء المريح. جاء منتصف الليل ورحل ولم يدريا به. افسحوا لهما مكاناً بقرب المدفأة حيث الازدحام جعل تحركهما مستحيلاً. في البداية ازعجتها الحرارة الزائدة المنبعثة من المدفأة ولكن عندما اخذت النار تخبو سيطر على تامي نعاس لذيذ وتدريجياً اخذ رأسها يكبو، ولما قدم لها ديرك كتفه دنت منه وبكل سرور استعملته كوسادة.

استفاقت على صوت قيثارة غير متناسق. اصلحت جلستها وفركت عينيها ورأت الطلاب حولها وقد انهكهم التعب. قليلون كانوا نائمين حيث يجلسون وآخرون كانوا متعانقين يتمايلون على انغام القيثارة الوحيدة. وفي احدى الزوايا كانت مجموعة منهم منهمكة في الحديث بصوت منخفض لكي لا يفسدوا متعة الآخرين. كان المقصف قد اقفل منذ فترة طويلة. وفيما كانت تهم بالنهوض رمت ديرك بنظرة عتاب.

«لماذا لم توقظني؟ كان يجب ان ننصرف منذ ساعات!».

هز كتفيه وقال:

«رأيتك مطمئنة راضية لأول مرة منذ اسابيع فلم اشأ ازعاجك».

نظرت الى ساعتها وامتقع وجهها.

«تجاوزت الساعة الثانية. سيتولى القلق العمتين اذا افتقدتاني. يجب ان اتصل بهما هاتفياً».

اصلح جلسته وقال:

«آسف يا حبيبتي، لا هاتف هنا، يجب ان تنتظري الى ان نصل

الوادي . في القرية كشك للهاتف».
وبنبرة مستعجلة يغلفها الخوف قالت:
«هلم بنا اذن».
سهرة مفتعلة في الخارج، تصرف جريء جداً، ولم تستطع تصور ردّة الفعل لدى آدم اذا اكتشفها تتسلل الى فوكس هول في ساعات الفجر الباكر.
خرجا فوجدا ان الارض بللها المطر، والجليد يلمع على كل غصن وورقة شجر، والصخور الصوانية بدت وكأنها مرصعة بخيوط من الفضة تحت اشعة القمر. كان الجليد يتحطم تحت اقدامها وهما يتجهان نحو السيارة. اطلق ديرك بضع عبارات وراح يفرك بشدة زجاج السيارة المكسو بالجليد.
«لا تقفي هناك فتتجمدي يا تامي، اصعدي الى السيارة وادبري المحرك».
وقذف اليها بالمفاتيح فتلقفتها بأصابع شبه متجمدة. ادخلت المفتاح وحاولت ان تدير المحرك ولكن عبثاً. وشعرت ببرد شديد في الداخل وكررت محاولة ادارة المحرك مرة تلو الاخرى وراحت تبتهل الى الله الاّ تتحقق مخاوفها وعندها ظهر وجه ديرك عند النافذة.
كان بادي العبوس وقال:
«لا جدوى، البطارية فارغة».
هزت رأسها وبان التوسل في عينيها وقالت:
«هذا غير ممكن. يجب الاّ يكون الامر كذلك».
ولكن الامر كان كذلك.
لم يستطع صاحب النزل مساعدتها:
«ثمة دورية مقرها على قمة تلك الهضبة، ولكنها لا تأتي الاّ في الصباح. آسف، لا استطيع ان اقدم لكما مكاناً للمبيت، كما تريان، النزل يغص بالطلاب ومعظمهم ينامون على الارض. يمكنكما الانضمام اليهم ان شئتما، هذا اذا توفر لكما المكان».

قالها والأسى يغلب على صوته.
وفي هذه الاثناء اخذت اسنان تامي تصطك، وثمة خوف رهيب جعلها تتلعثم وهي تتوسل ديرك.
«يجب ان اعود الليلة الى فوكس هول. ما فعلته يكفي لاثارة غضب آدم!».
وحاول طمأنتها:
«ليس آدم بعيداً عن التعقل بهذا القدر. الاهالي معتادون على رؤية الغرباء يجنحون الى الجبال، لا بدّ ان يفهم».
وشاءت ان تصرخ:
«انت الذي لا يفهم».
هذا الوضع كفيل بايقاظ المارد وهي التي ستعاني من ثورته. قاومت موجة من الهيستيريا وغادرت السيارة بعد ان اتخذت قراراً سريعاً.
«سأمشي ولا بدّ ان اجد في الطريق من يوصلني في سيارته».
انطلقت بخطى حازمة ولكن قبضة ديرك الغاضب امسكت بكتفها واوقفتها.
قال بحدة:
«لا تكوني مجنونة، فوكس هول بعيد ووسائل النقل هنا نادرة كنور الشمس في هذه الساعة. ستعودين الى النزل معي».
«لن اعود».
وراحت تقاومه، امام اصرارها لم يجد ديرك بداً من اللجوء الى القوة ليمنعها من الذهاب، فامسك بها بخشونة مسمراً ذراعيها الى جانبيها، وشلّ حركتها بجسده، ولما وجدت تامي نفسها عاجزة صرخت غاضبة:
«اتركني!».
«لن اتركك قبل ان تعديني بالتعقل».
وادنى رأسه منها ليتفاهم معها:

«اصغي يا تامي . . .».

انوار احدى السيارات غمرت الهضبة واستدارت الى الموقف بعد ان سلطت انوارها على شخصين ظهرا وكأنهما في حالة عناق.

هتفت تامي:

«سيارة».

وافلتت من قبضة ديرك واندفعت نحو السيارة التي قامت بدورة واسعة قبل ان تتوقف على مقربة منها.

لاحظت تامي انها سيارة عادية، وكانت شفتاها على وشك ان تتوسل السائق، ولكن الكلمات تجمدت على شفتيها عندما ترجل من السيارة قوام مألوف لديها وهمست:

«آدم!».

وجعل الهلع صوتها غريباً والشعور بالذنب كان غصة في حلقها.

«اجل، آدم».

شبك ذراعيه على صدره وحدّق بها وتسمرت عيناه الغاضبتان على محياها الخائف:

«آسف لافساد جوكما العاطفي».

وتحوّلت نظراته الباردة الى ديرك الذي كان يتقدّم نحوها ثم عادت الى محياها.

«قلقت العمتان لدى افتقادك ثم تذكرت العمة هونور حديثاً ارشدني الى مكان وجودك. تصرفك الارعن سبب لها حزناً كبيراً وهذا ما ارغمني على المجيء لأخذك».

صوته المنفعل وغضبه المكبوت دلاّ على انه يتمنى لو يلقي بهما معاً عن الجبل. المارد النائم استيقظ فعلاً. اتون من الغضب الداخلي مغلف بطبقة ثلجية رقيقة كان ينذر بالانفجار في اية لحظة، وادركت تامي ان سيلاً من العبارات الحادة سينصبّ عليها وهو يحملها الى السيارة، والعبارات القليلة التي تفوه بها كانت هي القطرات التي تسبق العاصفة.

هذا التفكير حذرها فانطوت على نفسها لا تأتي حراكاً. كانت تود ان توضح فكرة ديرك ولكنها لم تجرؤ على التفوه بكلمة. سيطرة آدم على نفسه كانت مخيفة اكثر من اظهاره لغضبه، وشعرت بالحسد عندما مرت السيارة بديرك مخلفة اياه جامداً على الجبل البارد.

لم يتح لها مجالاً للكلام اثناء الرحلة الى البيت. شعرت وكأن الحذر يمنعها عن الكلام والتفكير والاحساس. انقضت ساعة وكأنها دهر حتى استدار بالسيارة الى الممر المؤدي الى فوكس هول وتوقف خارجه. انفتح الباب وبرزت العمة هونور، النور المتدفق من الرواق اظهر تقاطيع وجهها المرتجف.

اندفعت نحو تامي وامسكت بذراعيها وقالت:

«يا عزيزتي، تولانا القلق بالرغم من ثقتنا من ان آدم سيعثر عليك. لماذا لم تخبرينا بنيتك في الخروج؟ من الحكمة دائماً ان تتركي رسالة لنعرف مكان وجودك تحسباً للحوادث، الاخطار كثيرة في الجبال».

وراحت تثرثر بعبارة غير مترابطة:

«وخاصة في هذا الوقت من السنة عندما يتعمدون نصب الفخاخ للغرباء المتهورين. لا شك انك تجمدت من البرد. ادخلي، فيني تعد لك شراباً ساخناً وتضع زجاجة من الماء الساخن في فراشك».

لم يساور تامي اي حياء فتركت العمة هونور تقودها الى الداخل، ولكن عندما اتجهت بها نحو الدرج امسك آدم بزمام الأمر.

«اذهبي الى الفراش يا عمتي هونور، سأهتم انا بتامي . . . اعطني هذه!».

وأخذ صينية عليها ابريق من الكاكاو الساخن من يد العمة فيني التي الجمتها الدهشة واشار عليها باللحاق باختها وقال مخاطباً تامي ببرود:

«تعالي معي، يمكنك ان تشربي هذا في مكتبي».

تبادلت العمتان نظرات القلق ثم اسرعتا بتنفيذ ما طلب اليهما،

وبعد ان القت العمه هونور نظرة عطف اسرعت الى الطابق العلوي. شعرت تامي بانها مهجورة منبوذة نهبة للرعب من الحارس العابس الذي ينتظر دخولها امامه الى المكتب. القت تامي نظرة حنين باتجاه العمتين قبل ان تسير متثاقلة بالاتجاه الذي اشار اليه آدم.

اراحت جسمها المرتجف على مقعد قريب من المدفأة، ومدت اصابعها المتجعدة نحو جذوة الحطب المتبقية في الموقد. استرعى نظراتها التائهة الشعار المحفور على رف الموقد:

«سيبزغ نور القمر ثانية».

كان هذا الوعد يواجهها كيفما اتجهت انظارها في البيت، ولكن المؤسف هو ان جميع لياليها المقمرة تحل عليها اللعنة. تحركت فيها روح الانفعال ومعها شيء من معنويات آل ماكسويل.

التفتت اليه وقالت:

«هات محاضرتك ولننته من الأمر، لا جدوى في ان اوضح لك ما حدث لأنني اعلم ان مزاجك لا يسمح لك بالاصغاء. اللورد فوكس رأى وقرر واصدر حكمه بالاعدام. متى ترسلني الى شجرة الاعدام؟».

ما كان يجدر بها ان تثرثر مع رجل نفد صبره. وفجأة وجدت نفسها محمولة في الهواء.

رفعها عن الارض والقى بها بعنف امامه.

قال حانقاً:

«تصرفك الاناني واستهتارك يفوقان كل تصديق انك لا تبالين بمشاعر الآخرين ولا تخجلين من السعي وراء ملذاتك. انت مجنونة، متطلبة، فارغة الرأس لا هم لك سوى زيادة عدد ضحاياك...».

وراح يهزها بعنف حتى اصطكت اسنانها.

«عليك اللعنة. تجعلينني اتخلى عن كل شعور حضاري يمنعني من جلد امرأة بالسوط. كم افهم واغفر التعطش للانتقام الذي جعل اسلافي يطاردون آل ماكسويل الاشرار».

واشتدت قبضته عليها مما جعلها تئن فقال:

«ليتك كنت رجلاً، لصببت عليك جام غضبي بالطريقة التقليدية. ولكنني سألجأ الى اسلوب اقل ارضاء في العقاب».

زجر ببضع عبارات وامسك بشفتها السفلى بين سبابته وابهامه وراح يضغط عليها حتى ادماها مسبباً لها بذلك جرحاً في قلبها يلازمها مدى الحياة. انه درس في الازدراء اكثر ايلاماً من الضرب واشد تأثيراً من لسع الكلام، وهذا جعلها تعاني من كدمات خفيفة مؤلمة، ثم دفع بها بعيداً عنه وسار مغادراً الغرفة من دون ان يرمقها بنظرة، سرعته في الخروج دلت على انه لم يعد يطيق رؤيتها ولو للحظة واحدة!

١٢- سيتحطم قلبي

لازمت تامي غرفتها لمدة ثلاثة ايام تعالج شفتها الجريحة وكبرياءها المحطمة. ولمّا تجرأت أخيراً على الهبوط لتناول الطعام تحينت غياب آدم.

لحسن حظها ان كثرة اشغال آدم في الاسابيع التالية لم تتح له الشعور بوجود الفتاة الشاحبة التي تتسلّل بحذر في اروقة فوكس هول والخوف يسيطر عليها، تجفل اذا لاح ظل في القاعة القديمة. طيف تعيس لفتاة مرحة جريئة تمكنت في مدى شهرين من احياء ثأر بقي كامناً عصوراً طويلة.

والمدهش هو ان العمة فيني اثبتت كونها حليفة جريئة لها. بالرغم من انها لم تفه بكلمة استنكار ضد آدم فانها اعربت عن استيائها من

معاملته لعروسه بزفراتها الحارة وبتقطيبها الدائم، وبذلك افهمت تامي انها الى جانبها، ولكن تصرفات آدم الصارمة منعت العمتين من التدخل. كان في صغره يتحمّل توبيخ العمتين، اما الآن فهو اللورد فوكس ولا يتحمّل ذلك.

العمة فيني هي التي حرّضت تامي على الخروج لمشاهدة جز الصوف: كل من في الجوار يتجمعون لمشاهدة الرجال يقومون بجز الخراف ووضع العلامات عليها. اما النساء فينهمكن في تقديم الطعام والمرطبات.

اهملت تامي تطريزها الذي كادت ان تنجزه وسرحت ببصرها عبر النافذة. بدت لها الجبال مختلفة الشكل وبعد قليل ادركت السبب. كانت خراف بيضاء كالثلج تنتشر في مساحات شاسعة تكسوها الاعشاب. بقرب المنزل ثمة نعجة كانت دائماً تخيفها ولكنها لم تعد تخيفها بعد ان جز صوفها وتضاءل حجمها الى النصف. النعاج التي كانت حتى الامس تبدو جميلة المظهر بدت مختلفة كلياً بقوائمها الدقيقة واكفالها النحيلة. تنهدت تامي وقررت ان تعمل بنصيحة العمة فيني فتخرج وتتنشق الهواء الطلق. لا خوف عليها من لقاء آدم اذا لم تبتعد كثيراً عن المنزل. خفق قلبها بشدة. كان منهمكاً في مراقبة جز صوف الخراف واذا لم يشذ عن قاعدته فانه لن يعود الا في ساعة متأخرة من المساء ليسرق النوم لبضع ساعات ويستيقظ عند الفجر.

سارت الى الخارج واتكأت بذراعيها على البوابة. كانوا يجيئون بالخراف، والطريق تغص بسيل لا ينقطع من حيوانات يملأ ثغاؤها الجو ضجيجاً.

في اعالي الجبال كانت كلاب الرعاة تتجول بدون توقف لتدفع بالخراف المتخلفة الى الهبوط. وقفت تتفرج وقد اعجبت بذكاء الكلاب وهي تجوب الصخور لتخرج من بينها الخراف وتبعدها عن الاماكن الخطرة ثم تعود لتدفع بخروفين قررا عدم اللحاق بالقطيع

الخائف.

دفعها الفضول للهبوط الى الوادي حيث تمّ تجميع الخراف في زرائب الى ان يحين دورها في الجز. كان الرجال يجلسون على مقاعد خشبية وعلى ركبهم اكياس كبيرة يجزون الصوف بسرعة فائقة. وقوائم الحيوانات مقيدة مما اثار ضحك تامي اذ لاحظت عليها السخط في البداية لأنها تتعرض للجز الذي يجعلها تبدو عارية ومضحكة للغاية، ثم تقفز مبتعدة لتنضم الى باقي القطيع العاري.

امضت ما يقارب الساعة على هذه الحال ثم تولاها خوف شديد لدى رؤية رأس اسود فأسرعت عائدة الى فوكس هول. وعندما اصبحت في مأمن ابطأت لتتأمل مشهد الحملان وهي تعود للانضمام الى امهاتها وادهشتها سرعة معرفة كل حمل لأمه، ويبدو ان دهشتها كانت واضحة لأن صوتاً الى جانبها قدم لها المعلومات:

«لا مجال لان تتعرف الحملان على امهاتها بواسطة النظر بل بواسطة الشم. قد تكون رائحة جميع الخراف واحدة بالنسبة اليك ولكنها تختلف بالنسبة لكل حمل».

استدارت تامي والخوف يملأ قلبها اذ عرفت الصوت المتعجرف حتى قبل ان يقع بصرها على بام. اخذت نفساً عميقاً لكي تهدىء اعصابها.

«شكراً لاخبارك لي... كنت اتساءل».

لم يكن في سلوك بام ما يوحي بالمودة:

«انا ايضاً اتساءل حتى متى تبقين حيث لا يرغبون فيك. التظاهر بكونك عروساً سعيدة لم يعد يجوز على احد واعلم ان آدم متضايق».

اجابتها تامي:

«امتأكدة انت ان معلوماتك هذه ليست صادرة عن امنية تداعب مخيلتك؟».

دفقة الاحمرار الذي اعترى بام لم يؤثر على مظهرها. الغريب انها تحاول دائماً ان تظهر هادئة.

«بامكان المرأة تقدير مشاعر الرجل بدقة وخاصة اذا كانت تراه بانتظام. جميع اهالي الريف يغبطون آدم لتوفيقه بعروس لا تتطلب شيئاً من وقته».

قالتها بام بلهجة لاذعة واضافت:

«لماذا لا تعترفين... وتعودين الى لندن؟ وجودك هنا يحرج آدم وهو شديد الحساسية بالنسبة لانتقادات اصدقائه. هذا لا يعني اننا لا نميل اليك».

واعترت صوتها رنة عطف زائفة جعلت تامي تصرف باسنانها.

«لا مكان لعابرة سبيل مثلك في هذا المجتمع العامل. انت انثى للزينة تسرّ العين ولكنك غير منتجة. رجال الجبال يطلبون ميزة معينة في الزوجة وهي القدرة على مشاطرتهم العمل. خذي اليوم مثلاً، بينما كنت تتجولين للتسلية كنت انا اراقب تقديم الطعام والشراب للعمال. طلب الي آدم المساعدة وسرني القيام بذلك. سن العمتين لا تسمح لهما القيام بهذا العمل الشاق، اما انت...».

وهزت بام كتفيها تاركة الصمت يعبّر عن ذاته ثم قالت:

«اذا كان امر آدم يهمك حقاً فعودي من حيث اتيت ولا تتواني في اطلاق سبيله».

كادت تامي ان تختنق غضباً غير ان كرامتها اطلقت جواباً من حنجرتها المتكتمة:

«من يسمعك يعتقد ان زوجي ضعيف الشخصية يفتقر الى التفكير المستقل. ربما عرفته قبلي ولكنني لا اصدق ان يكون زوجي قد بحث اموره الخاصة مع امرأة غريبة».

وشدت قامتها اذ شعرت بكونها قزمة امام طول بام الفارع وقالت:

«لو شاء آدم استرجاع حريته لطلب ذلك مني بنفسه، وحتى الآن لم يبدر منه أي لامبالاة نحوي».

شعرت بلذة الانتصار عندما عضت بام على شفتها وبذلك

افصحت عن قلقها. وحفاظاً على كرامتها لجأت الى خدعة يائسة، وبعد ان اضفت على صوتها رنة من الشفقة قالت تامي:

«الرجل يحب تعدد الزوجات، ولا ترضي نزواته العديدة الا عدة نساء مختلفات المميزات، ولسوء حظه لا يسمح له القانون الاّ بزوجة واحدة وهي لا تكفي لارضاء جميع نزواته وعندما يختار زوجة عليه ان يجد فيها معظم متطلباته. كما سبق أن قلت، انا لا اتقن الاعمال المنزلية، ولكن ثمة مجالا ابزك فيه، سلي نفسك يا بام ما هو الدافع الذي يجعل الرجل يتغاضى عن الغبار في المنزل وعن وجبات الطعام البسيطة؟».

كانت بام ساذجة القلب! تولت تامي فرحة شريرة للاحراج الذي سببته عباراتها اللاذعة للفتاة الأكبر سناً.

«ما انت سوى مبتذلة رخيصة».

قالتها بام بحدة واستدارت على عقبيها لتبتعد ما امكنها عن ضحكة تامي الوقحة المثيرة للحنق.

ولكن سريعاً ما تلاشى سرور تامي بالنصر فبالرغم من خروجها منتصرة فان بعض اقوال بام آلمتها كثيراً وخاصة قولها ان آدم طلب اليها ان تساعده في اعمال الجز، اذ انها تشعر بقدرتها على القيام بهذا العمل، ولكنه لم يتح لها فرصة للمحاولة بل اختار بام مساعدة له وبذلك صبّ الزيت على نار الأقاويل التي تثير ضجة في المجتمع كما قالت بام.

امضت ما تبقى من النهار في غرفتها تعالج استنكارها المتزايد لتصرفات آدم. انه يدين لها بالوفاء الى ان يتم البت بأمر زواجها، قالت ذلك وهي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً.

«سأنهي الأمر معه الليلة، سأصر على التحدّث اليه لحظة دخوله مهما كان تعباً».

وبعد ان نسيت خوفها راحت تجوب الغرفة وهي عرضة للاضطراب عاجزة عن التركيز على اي عمل بينما افكارها في غليان.

ولأنها ابت تناول العشاء، حملت العمتان العطوفتان صينية طعام الى غرفتها ولكنها لم تقربها لانها لم تستطع ارغام نفسها على تناول ملعقة واحدة من الحساء.

كان الوقت قد قارب منتصف الليل عندما سمعت صوت السيارة تدخل ممر البيت. وبدون ان تتوقف للتفكير اندفعت تامي الى الطابق السفلي ووقفت في القاعة ترتجف داخلياً وكاد آدم ان يصطدم بها وهو يجتاز المدخل.

امتدت يده لتمنعها من السقوط:

«لماذا لست في فراشك؟».

سألها ببرود وهو يسحب يده.

فاجابت ببرود مماثل، مصممة على الا يخذلها الاقدام:

«ثمة امر اود بحثه معك».

«الا يمكن تأجيله؟».

قالها من دون ان يبدو عليه اثر للضيق. خلع سترته قبل ان يتجاوزها الى المكتب حيث سكب لنفسه فنجاناً من الشاي وراح يرشفه بسرعة ولما انتهى منه سكب فنجاناً آخر ولم يسكب فنجاناً لها:

«ما الأمر؟».

وحمل فنجانه الى مقعد حيث جلس ومد رجليه مسترخياً على الوسادة بعد ان اطلق زفرة ارتياح.

لم تكن اللحظة مناسبة للمجابهة ومع ذلك فان القهر لن يدعها تعرف الراحة.

اندفعت قائلة:

«كنت اتحدث مع بام اليوم».

فهمس وهو يغمض عينيه:

«احسنت صنيعاً، انها بارعة في الحديث في معظم المواضيع».

فردت بمرارة:

«بما في ذلك موضوع زواجنا».

لم تتبدل اساريره بل بقي متمالكاً اعصابه وكأنه ثعلب ينام واحدى عينيه مفتوحة، وكانت تامي تدرك انها تستحوذ على كل انتباهه.

«طلبت الي تلك الليلة ان اكون على مستوى مركزي الاجتماعي ومع ذلك تحطّ من قيمتي بتجاوزي، وبالطلب الى بام ان تتولى مسؤولياتي وهي تقديم الطعام والشراب للعمال».

ظهرت الدهشة في عينيه الزرقاوين وقال:

«كنت اجهل انك ترغبين في القيام بعمل لا تقدرين عليه».

فردت عليه حانقة:

«كان الاحرى بك ان تسألني».

وشابت صوتها رنة من التهكم وهي تقول:

«ولكنني نسيت كم كنت مشغولاً بمرافقة بام في المنطقة مفسحاً المجال ليس فقط لتزايد الاقاويل بل مقوياً اقتناع الناس بأني خسارة كبرى عليك كزوجة. ولشدة ثقة بام بذلك فقد المحت اليّ بانها تريدني ان اخرج من حياتك لتحل هي محلي، كان بامكانك ان توفر علي ذلك اذ الاحرى بك ان تتريث حتى تتخلص من امرأة قبل ان تأخذ اخرى».

بقي مسترخياً في مقعده دون حراك. رمقها بهدوء وقال:

«انا اعتبر بام الزوجة المثالية للمزارع الجبلي. انها امرأة مكتملة ومقتدرة من جميع الوجوه على الحياة الزراعية، هذا بالاضافة الى كونها جميلة ذات محاسن طبيعية».

فيما كان يعدد مزاياها انكمشت تامي على نفسها:

«ولكنني لا اتيح لها التفكير بامكانية قيام ما يتعدى الصداقة بيننا، حالياً على الاقل، فذلك لا يكون عدلاً لها ولي ولك».

عندما نهض رأت تامي انه مرهق ولامت نفسها لانها اخرته عن النوم، وبدا انه لم ينته من حديثه بعد.

«كلانا يعلم ان زواجنا هو علاقة مؤقتة ولم اجد من الضروري ان اؤكد لك اني سأوليك وفائي وحمايتي ما دمت زوجتي».

تردد قليلا ثم قال:

«وكذلك احترامي ولا اظنني فعلت ما يستحق اتهامي باتاحة المجال للأقاويل ولا يمكن ان افعل ذلك ما دامت لي زوجة تقيم في منزلي».

ثم اردف متثاقلا:

«ايضيرك ان آوي الى الفراش؟».

شعرت بضميرها يؤنبها. الارهاق الشديد ظاهر عليه، وبحركة لا شعورية اندفعت نحوه وطوقت خصره بذراعيها الاّ انه كان اشبه بقطعة من صوان ولكن ذلك لم يردعها عن الكلام.

«يؤسفني ان اكون عبئاً عليك. كم اتمنى ان اكون زوجة مزارع ناجحة ولكنك لم تتح لي فرصة المحاولة. منذ البداية لم ينشأ بيننا سوى سوء التفاهم».

ونظرت الى محياه الهادىء واستأنفت القول:

«هلا حاولت ان تمحو من ذهنك فكرة كوني عديمة النفع وأنانية، وجميع النعوت التي اطلقتها علي؟ اريد لزواجنا النجاح. انا احبك يا ادم وحبي لك يفوق كل حب وسيتحطم قلبي اذا تخليت عني».

كان جسده اشبه بصخرة لا تلين ولم يوح اليها بأي امل، تنحى جانباً وتركها وكأنها على حافة هاوية تائهة الافكار واصابعها تتشبث بالهواء.

ربما كان ذلك من جراء الارهاق ولكنها فضلت الاعتقاد انه لم يتأثر ابداً عندما قال لها بصوت اجش:

«تمالكي نفسك، المرض أضناك وربما اثر على عواطفك، بعد بضعة اسابيع عندما تكونين قد تمالكت عافيتك، ستندمين على هذه الأقوال».

هزّت رأسها تمهيداً للاعتراض على ارتيابه في اخلاصها، ولكنه تجنب النظر الى محياها البائس وقال:

«منذ مجيئك الى هنا لم تفعلي ما يجعلني أعيد النظر في رأيي الأصيل. انت صغيرة ومندفعة وبسبب حياتك المدللة السابقة تسعين الى نيل كل ما هو صعب المنال. لو ان في تصرفاتك ما يحمل طابع المسؤولية لابتدأت بتغيير رأيي. ما زلت في نظري تلك الصغيرة المدللة المتعجرفة، اثبتي لي مقدرتك على الصبر وعلى كبح جماح نفسك. اثبتي لي ولو لمرة واحدة قدرتك على القيام بمهمة شاقة واحدة فأنسى الجدال الثابت ضد بقائك هنا».

ومد يده الى الباب وقال:

«هذا الحديث طال».

وأومأ اليها برأسه لكي تسير امامه.

«اني متعب جداً ولا طاقة لي على المزيد من الجدال».

وسارت تامي امامه بصمت الى فوق وتوقفت امام باب غرفتها حيث امسك آدم بذقنها بين سبابته وابهامه وحدق في محياها العابس وقال:

«الأشهر القليلة من زواجنا كانت مسرحاً للجهاد والكفاح، أمضيتها في استياء وتعاسة وانت الآن حائرة وحيرتك تمنعك من فهم نفسك. قريباً ينتهي موسم جز الصوف وبعده المعرض وعندها سنكون في وضع يسمح لنا باتخاذ قرار بشأنك».

وليضع حداً للجدال دفع بها الى داخل غرفتها واغلق الباب حيث وقفت لا تأتي حراكاً تصغي الى الحركة الجارية في الغرفة المجاورة وعندما سمعته يطفىء النور انتقلت الى النافذة تحدق بعينين تائهتين في الليل المظلم.

وضعها قيد الاختيار.

من الآن حتى موعد المعرض سيقوم آدم بتقدير حسناتها وسيئاتها قبل ان يقرر نهائياً في ان يبقيها هنا زوجة له أو لا. وافلتت منها آهة.

كانت حائرة بين ان تقفز فرحاً او تبكي يأساً.

ارتفعت معنوياتها عندما فكرت بان الهدنة المضطربة هي أفضل من العداء. اذا اتاح لها فرصة للتفاهم فقد تتمكن من اقناعه بانها امرأة ناضجة وليست طفلة مدللة كما ظنها.

١٣- فرحة لم تكتمل

استيقظت تامي صباح يوم المعرض يساورها شعور بانه اليوم المشهود في حياتها، وسرحت بافكارها تتلذذ بالمباهج المتوقعة.

ستمضي النهار بكامله مع آدم، وستكون العمتان معها، ولكن ليس طوال الوقت لانها حتماً ستتجولان بين اصدقائها، ثم يحين موعد الحكم على اشغال المتبارين والمتباريات. كانت قد ارسلت شغلها، بمساعدة العمتين، الى حيث سيقام المعرض بعد ان دفعت رسوم الاشتراك. بطاقتان فاخرتان تحملان رقمي القطعتين اللتين اشتركت بهما واللتين تثبتان العمل الذي قال آدم انها عاجزة عن القيام به. سيكون هذا اليوم حاسماً. انه اليوم الذي حدده آدم لاتخاذ قراره النهائي بشأنها.

لم تكن الاسابيع السابقة قد ذهبت هدراً. استطاعت ان تمضي فترة معه كل يوم، تارة لخمس دقائق وطوراً لمدة ساعة، وفي كل مرة كانت الهدنة بينهما تزداد رسوخاً، وكان الجو بينهما ودياً تقريباً.

جلست في فراشها وارتسمت على شفتيها ابتسامة سرور. العقبة الوحيدة بينهما هي تأخر آدم بالاقرار بالهزيمة. ابتسمت وهي تتذكر احداثاً متباعدة حين كانت العاطفة تجعل عينيه داكنتين الى حد السواد، وكان يردد اسمها بصوت اجش، وحين تصلب جسده عندما تجرأت مرة ووضعت رأسها على صدره وسمعت خفقات قلبه المتلاحقة.

قفزت من سريرها وجرت الى الحمّام مصممة على ان تبدو في قمة الجمال عندما تذهب لملاقاته.

قال لها آدم في الليلة السابقة:

«لا داعي لأن تنهضي والعمتين باكراً. سأكون في ساحة المعرض عند الفجر ولا بأس اذا اتيتن في موعد الغداء».

تبادلت العمتان ابتسامات السرور عندما هبطت وهي تبدو كالزهرة الندية، في ثوب قطني زهري اللون بدون اكمام وتنورة واسعة مستديرة.

ابتسمت العمة هونور وقالت:

«كم تبدين متألقة».

وقالت العمة فيني بتجهم وفي عينيها نظرة حنان:

«فعلاً، سيفخر آدم بهذه الامرأة».

عانقتهما تامي. كانت تتعجلّ في تحقيق آمالها ولكنها لم تشأ استباق القدر. انهما ماهرتان في تفهم امزجة من تحبان بحيث ان الايضاح لم يكن ضرورياً.

«هل نحن جاهزات؟».

وسارت بهما نحو الباب.

«انها الساعة الثانيه عشرة. كانت قد وعدت آدم بموافاته في

الواحدة».

فاجابت العمة فيني بدون اكتراث:

«سيتطرك حتماً، انه لازمك كثيراً في الاسابيع المنصرمة».

وضحكت العمتان بصوت مرتفع عندما اصبح لون وجه تامي يحاكي لون ثوبها.

كان الصباح ماطراً اما الآن فالشمس مشرقة. وبينما كانت تامي تنطلق بسيارتها نحو الجبال المحيطة بالوادي حيث يقام المعرض خيّل اليها ان الجبال تبتسم لها. عندما اوقفت السيارة وسارت مع العمتين الى حيث كان المشرف على المعرض يدير العمليات، كانت الشمس تتألق على الساحة الطبيعية في واد وارف الاشجار تجري فيه السواقي وتخيم عليه سماء زرقاء كعيني آدم تشوبها غمامات متفرقة تتوج القمم المحيطة بالمكان.

مررن بمجموعات من الماشية وسط عاصفة كبيرة من الحماس اذ كانوا على وشك اختيار افضل حيوان في المعرض.

قالت العمة فيني:

«يحاول اولئك الحمقى تفضيل اي حيوان من هذه الحيوانات الممتازة على سواه، بينما يمكن لأي مرب للمواشي ان يقول لك ان ذلك مستحيل».

رجال اشداء ينتعلون احذية مطاطية ومعاطف بيضاء كانوا يجرون مجموعة من الابقار في دائرة بحيث تمر امام لجنة التحكيم التي كانت تدوّن الملاحظات في دفاترها. سار احد الحكام الى بقرة ورفع ذيلها وربت على بطنها وهز برأسه وعاد الى زملائه.

قالت العمة فيني:

«مجرد تمثيل، قد تكون هذه البقرة هي الفائزة».

جالت تامي الساحة بنظراتها بحثاً عن آدم، ورأت رأسه بشعره الاسود يعلو رؤوس بعض الرجال الذين تجمعوا قرب زرائب الخراف، وفي اللحظة ذاتها التفت آدم ورآها ولوح لها بيده. شعرت

وكأن تياراً كهربائياً سرى منه اليها مزيلاً كل عقبة تعترض سبيله، ومولداً حقلاً مغناطيسياً اجتذب احدهما نحو الآخر ببطء.

عندما التقيا امسك بيدها وفتحها وطبع قبلة على راحتها، فاطبقت يدها عليها خشية ان تطير منها وقد أذهلها باظهار عاطفته بهذه الطريقة غير الاعتيادية.

قال بصوت اجش منخفض:

«مرحباً يا تامي».

فردّت عليه من اعماق قلبها:

«مرحباً يا آدم، وصلنا لتوّنا».

«اعلم ذلك، كنت اترقب وصولك».

هذا الاقرار جعل قلبها يطير فرحاً. تحركهما البطيء نحو تفاهم افضل كانت تدفع ضريبته صبراً مريراً. ولكنها ابتدأت الآن فقط تدرك ان القيد الذي فرضه كان يستحق كل ذلك. كان يختبر مدى نضوجها، وكانت حرارة تحيته اشبه بمكافأة لها.

«هل انت خائفة؟».

ولم ينتظر ردها بل امسك بذراعها وسار بها نحو المنصة المعدة لتقديم الطعام.

«الأفضل ان نأكل باكراً تجنباً للازدحام».

وعارضت بضعف:

«والعمتان؟ الن تشاركانا الطعام».

فقال برقة:

«دعيهما وشأنهما».

رغبته غير المتوقعة في مرافقتها زادت من خفقات قلبها المتلهف.

تناولا الغداء الى مائدة لشخصين في ركن هادىء من المنصة بعيداً عن الازدحام. لم تدر تامي ماذا اكلت. سقط القناع القاتم عن وجه آدم ليظهر محياه المرح الذي كانت قد لمحته ذات مرة وقد انبأ بوضوح تام بالقرار الذي الح بانه سيتخذه اليوم. لو كان الطلب اليها العودة

الى لندن لما رمقتها هاتان العينان الزرقاوان باعجاب، ولما لازمت هذه الابتسامة الخلابة شفتيه. شعرت بخفقة مجنونة في قلبها عندما التقت نظراتهما. صقر الجبل يبدو اليوم مستعداً لأن يأكل من يدها.

كانت تتمنى ان تمضي بقية النهار في ذلك الركن الهادىء، ولكنها استاءت عندما جاءت العمتان لتفسدا عليها عزلتها.

«اسرعي يا تامي، التحكيم في الرسم والتطريز على وشك ان يبدأ، واستنادا الى الملاحظات التي سمعناها فان ما تقدمت به سينال الجائزة الاولى حتماً. هل رأيت قطعتيها يا آدم؟

انهما رائعتان».

واشرقت عينا العمة هونور بفخر. قالت:

«انهما تضعان المعروضات الاخرى في الظل، والتجهم يعلو وجهي بام وعمتها».

«ارتفع حاجبا آدم دهشة، ولكنه لم يبد اي تعليق وهم يسيرون الى منصة المعروضات.

انتظرت تامي ردة الفعل لديه باضطراب شديد. كانت لجنة التحكيم المؤلفة من سيدتين ورجل تسير متمهلة حول الرفوف التي تحمل عينات رائعة لأشغال المطرزات الماهرات.

كانت قطعتها معروضة بطريقة مميزة، حتى ان الطيور التي تبدو وكأنها حية كانت تغري المرء بان يمد لها اصبعه لتحط عليها، برزت بطريقة مثيرة، اوراق النباتات زاهية الالوان مزدوجة ومتشابكة تكسوها اعداد كبيرة من البراعم المغلفة باوراق تتراوح الوانها بين الأصفر الزاهي والأحمر. والتطريز الناعم الدقيق انتزع آهات الاعجاب من المشاهدين واصطبغت وجنتا تامي بحمرة الحماس عندما وافق الحكام بالاجماع على اعطاء الجائزة الاولى للمعروضة ذات الرقم الخامس عشر.

صرخت العمة هونور بابتهاج:

«انها معروضتك يا تامي. تكاد الدنيا لا تسعني من شدة اعتزازي

بك».

حتى العمة فيني تحمست فطبعت قبلة سريعة على وجنة تامي المتوهجة وقالت:

«احسنت يا عزيزتي، احسنت».

استدارت تامي لتواجه آدم وكلها حماس لسماع تعليقه. بدا عليه الاستغراب والذهول ثم تمالك نفسه وامسك بيدها ونظر الى اظافرها التي يكسوها طلاء زهري يتمشى ولون ثوبها، ثم الى اصابعها الرقيقة التي بدت وكأنها لا تستطيع العمل وبادرها القول:

«لم يخطر لي... لا شك انك عملت بمثابرة فائقة حتى انجزت كل هذا العمل في مثل هذا الوقت القصير، مع انني لم ارك تشتغلين. متى اشتغلت؟».

«عندما كنت وحيدة في غرفتي. شئت ان اجعلها مفاجأة لك. وعندما كنت تفاجئني بدخولك كنت اخبىء الشغل تحت الوسادة الى ان تنصرف».

«فهمت!».

شدت بها العمة هونور قائلة:

«هيا بنا، معرض اللوحات يقام هنا».

وراحوا يشقون طريقهم في الازدحام، ولكنهم سمعوا تصفيقاً حاداً وفاتهم سماع اعلان الفائز. مدت تامي والعمتان اعناقهن ووقفن على رؤوس اصابعهن ليستطعن رؤية المكان الذي وضعت فيه شارة الفوز ولكنهن اضطررون للاعتماد على طول قامة آدم الذي كان بامكانه النظر من فوق الرؤوس المزدحمة ليقدم اليهن المعلومات.

فقال لهن وقد امتقع لونه:

«الرقم عشرة، الليدي فوكس، من فوكس هول».

ثم استدار بها وخرجا معاً من الخيمة وكأنه يرفعها عن الارض، ولم يدع قدميها تلامسان الارض واستمر في السير بها الى ان وجدا

مكاناً هادئاً خلف خيمة الاسعافات الاولية. نظرت تامي الى محياه وادهشتها ملامحه المذهولة. الحائرة.

«استغفلتني فعلاً، اليس كذلك؟ لا شك انك ضحكت كثيراً من وراء ظهري وانت تتظاهرين بهدر الوقت، بينما كنت تعملين بسرعة وبتكتم متعمد لكي تذهلني النتيجة، وقد اذهلتني فعلاً ولا يساورني ادنى خجل مما اقول. ادين لك بالاعتذار يا تامي، فانت لست تلك الطفلة المدللة العديمة النفع وما دمت قد اخطأت في هذا الامر فقد اخطأت في الامور الاخرى ايضاً».

لحظة كهربائية لم تكن كافية لاستيعاب التيار الذي سرى بينهما بددها صوت انطلق ببرود.

«آسفة لتدخلي بدون استئذان، ولكن بصفتي واحدة من لجنة تنظيم المعرض طلبوا الي جمع كل الفائزين لاجراء مقابلة لهم مع الصحافة المحلية. يجب ان اهنئك يا تامي».

قالت بام ذلك من خلال شفتين مضمومتين، ثم تابعت:

«يبدو انك حظيت بما يتعدّى كونك مبتدئة».

عندما استدارت على عقبيها ومشت كانت تتوقع ان يلحقا بها.

اطلق آدم ضحكة استهزاء اضحكت تامي. كانا لا يزالان يستمتعان بطرفة عندما سمعت تامي صوتاً آخر لم تتوقع سماعه ينطلق بطريقة ملفتة للانتباه.

«ها هي تامي، المرة الصغيرة الخبيثة! آنسة ماكسويل المتحفظة، بطلة قسم التطريز انحرق شوقاً للعودة الى لندن لأخبر اترابك».

كان ذلك ستيف هاريس الذي اختزن حقده الذي اصبح كالسوس الناخر ليصبه عليها في هذه اللحظة بالذات.

«ماذا... ماذا تفعل هنا؟».

قالتها هامسة وقد بان في عينيها انهيار صرح آمالها. لم تتوقع مجيء ستيف وانتقامه لكبريائه المحطمة. كانت تظنه بعيداً جداً ولا يمكن وصول حقده الى هنا.

انطلق صوت آدم ممزقاً هذا الصمت الغريب. تكلم بصفته سيد هذه الجبال وقال بصوت يغلفه البرود:

«انك تضاهي العجائز مهارة في اطلاق الشائعات يا هاريس! انت في غير مكانك هنا وانصحك بالعودة الى الجحر الذي خرجت منه».

ازداد محيا ستيف امتقاعاً وادار ظهره لآدم وخاطب تامي:

«أنا في اجازة طويلة. طردت من وظيفتي بفضل تأثير اموال والدك وجشع رئيس التحرير، ولكن بعد كمبريا لم يمنعني من المجيء للانتقام خاصة انها لم يصدقا ان ما كتبته كان من تدبيرك انت، وانك خابرتني بنفسك هاتفياً لتضمني اشراكي في لعبتك. كالمعتاد يا تامي نجحت في نيل مبتغاك».

استقرت نظرته التائهة على آ دم للحظة قصيرة وقال:

«لم تفكري بالأذى الذي تلحقينه باصدقائك».

احست تامي بغصة الخوف تعصر معدتها، وكان الجمهور قد تفرّق ولم يبق سوى بام وآدم وستيف لمشاهدة اهانتها.

كان ادم يقف وراءها فقال بنبرة باردة:

«هلا اوضحت ما تقول؟».

كان ستيف على اتم الاستعداد لتلبية هذا الطلب:

«لا تقل لي انك تجهل اللعبة التى مارستها تامي عليك تلك الليلة».

واطلق ضحكة عالية وهو غير مصدق.

«انكم معشر اهالي الجبال، تشتهرون بالسذاجة ومع ذلك كان يجب ان تدرك انها خرجت بالزورق وهي تعلم ان ما يحويه الخزان من وقود غير كاف، حتى ولو لم يخطر ببالك انها اتصلت بي لتضمن وجودي بالانتظار ومعي آلة التصوير لتسجيل تلك المغامرة للأجيال الطالعة».

استقرت عينا آدم على محياها ببرود وصلابة كالصخرة التي تحرس

منزله وقال:

«انت فعلت ذلك؟».

«انا... انا...».

وراحت تلعق شفتيها الجافتين بينما كان عقلها يبحث عن اعذار بسرعة رموشها المنفعلة. كانت مجرد طرفة غير مؤذية حينذاك ولكن ستيف عرضها بطريقة جعلتها تظهر بمظهر الخدعة الرخيصة.

«بالطبع هي فعلت ذلك»

قالتها بام بصوت تطغى عليه رنة الانتصار واضافت:

«كنت ضحية خدعة كما فعلت احدى شريرات آل ماكسويل بواحد من آل فوكس السابقين. يا لآدم الشهم المسكين!».

لم تستطع تامي الاحتمال اكثر من ذلك. وفيما كانت العيون المليئة بالاتهام تتسلط عليها، دارت على عقبيها وانطلقت نحو الجبال الموحشة المجاورة متمنية ان تبتلعها فلا تعود لمواجهة آدم الذي يفيض اشمئزازاً.

١٤- عروس من ثلج

غيوم غريبة أخذت تتجمّع فوق الجبال، ولو كانت تامي من اهالي المنطقة لأدركت انها انذار بتبدّل الطقس. مجموعة من الغيوم الطويلة المتوازية تشير بكل وضوح الى انّ ريحاً عاتية ستهب. ولو كانت العمة فيني هنا لقالت:

«انها ريح كفيلة بانتزاع ريش اوزة».

حتى ولو كانت تعلم لما كان لذلك اي تأثير على هربها المريع من اعدائها. اتجهت نحو سفح الجبل والدموع تنهمر على خديها، وانطلقت نحو الجبال الاكثر ارتفاعاً ولم تتمهل الى ان أخذت قدماها تنزلقان على الاعشاب. استأنفت الصعود والألم يمزق رئتيها وكادت ان تبلغ القمة عندما ارغمها الم اطرافها ورئتيها على الاستراحة. ومن

دون ان تبالي بما سيلحق بثوبها من تلف انزلقت وراء احدى الصخور الضخمة وفردت ذراعيها على سطحها البارد وألقت برأسها عليها وراحت تنتحب.

انقضت ساعة كاملة قبل ان تهدأ تماماً لكي تعيد النظر في حالتها. اعمت عينيها واصمت اذنيها عن كل ازعاج. التصقت بالصخرة وسمحت لعقلها المعذب ان يردد: «انتهى زواجك. آدم يكرهك ويحتقرك. يجب ان ترحلي، ارحلي... ارحلي...».

كانت قد توصلت الى هذا القرار عندما اخذت قطرات المطر الاولى تنهمر على وجنتيها الساختتين.

ارتجفت وشعرت فجأة بالبرد يخترق ملابسها الرقيقة. التفتت الى الوراء وذهلت، على مقربة منها غمامة كبيرة تتقدم، تهديد بطيء زاحف نحوها، غمرت الغمامة القمم وتستمر الآن في الهبوط.

هبت على قدميها وقد افزعها قصف الرعد وقطرات المطر الضخمة المتسارعة المتساقطة الى ساقية قريبة. فات الأوان لتتذكر محاضرات آدم على جنون السير في الجبال من دون المعدات اللازمة. «قد يكون السير على الجبال ممتعاً ولكنه شديد الخطر. لا تخرجي بمفردك قبل ان تصبحي اكثر دراية وحتى بعد ذلك يجب ان تكوني شديدة الحذر وتذكري المصاعب التي تنشأ اذا اصابك ادنى حادث».

ارتعدت ثانية اذ تردّد صدى تحذيره في مسامعها ونظرت حولها خشية ان يبرز بقامته المديدة. وعمل عقلها في هذا الاتجاه وراحت تعد الجدل الذي سوف تبديه لذلك المستبد اذا برز امامها: «كان نهاراً طويلاً حاراً، الشمس تسطع في السماء الصافية، والحر يتراقص على الصخور، والسواقي تجري طبيعية، كيف كان لي ان اتنبأ بتقلب الطقس؟».

وما ان انتهت من الجدل حتى كان المطر قد بللها كلياً. قبل ذلك بدقائق معدودات كان كل شيء هادئاً تماماً ومع ذلك فقد هبت الريح الآن وهي ريح عاتية حادة وتنذر بالسوء. وعندما لمع البرق في السماء

المتلبدة، اخذت تامي تهبط الجبل راكضة وقلبها يخفق بعنف وقد جفّ حلقها من شدة الخوف. وعندما اسرعت في الجري تحول الطقس الحار الى جحيم من الاصوات والهياج، فالرعد يقصف والبرق يشق كبد السماء والمياه تنهمر كالشلال.

توقفت تامي تلهث وهي تحاول فتح عينيها المليئتين بالمطر. تحول الممر الى مستنقع منحدر شديد الانزلاق والسواقي البطيئة تحولت الى سيول تجرف كل ما يعترض سبيلها. لم تر تامي بدأً من اكمال مسيرتها. قبل ان تهب العاصفة كانت قد القت نظرة عابرة على سطوح الخيام المنصوبة في الوادي وقالت في نفسها اذا اكملت طريقها فلا بد ان تبلغ شاطىء الأمان.

ولكن صح ما قاله آدم، فقد علق كعب حذائها بجذر شجرة. فتعثرت وسقطت بعنف على كومة من الاعشاب البرية ظنتها لينة فاذا بها تخفي وراءها صخوراً حادة كالحراب. شعرت بألم شديد في انحاء جسدها عندما ارتطمت ضلوعها وكوعاها وركبتاها بعنف بالصخور المستترة فاطلقت صرخة حادة ضاعت في غمرة الاصوات المحيطة بها، وحاولت النهوض ولكنها عادت فسقطت وهي تئن عندما عجز كاحلها الملتوي عن حملها.

انقضى نصف ساعة قبل ان تسمع صوت صفارة. آدم يحمل صفارة دائماً.

كان قد اعطاها صفارة وقال لها ان تحملها كلما سارت على الجبال، ودربها على الاشارات الدولية في حالة الخطر. ست صفرات مدى كل منها عشر ثوان لمدة دقيقة ثم دقيقة استراحة وبعدها ست صفرات اخرى. الصفارة الآن في احد ادراج غرفتها.

صرخت بيأس:

«انا هنا.. النجدة، ارجوك، انا جريحة، هنا.. هنا».

واستمرت في الصراخ الى ان اصبح صوتها وكأنها في حلم يتردد صداه في جوانب الحفرة السوداء التي انزلقت اليها. هنا، اطلقت

صرخة اخيرة يائسة قبل ان يتلقفها فراغ لا قرار له.

«يا لك من حمقاء صغيرة».

وحشية كلماته تعارضت ورقة يديه اللتين تجوسان جسدها بحثا عن الجروح. طرفت تامي بعينيها وفتحتهما بتثاقل وجالت بهما في ملامح آدم التي اثرت عليها العاصفة ورمقته بنظرة حائرة تفيض امتنانا.

وهمست:

«عثرت عليّ...».

«اصمتي واشربي هذا».

ووضع بين شفتيها فوهة زجاجة من الدواء وارغمها على ابتلاعه. امسك برأسها بيد وبالزجاجة باليد الاخرى وراح يسقيها الدواء الى ان اطمأن الى تمالكها لقواها وقدرتها على الرد على اسئلته:

«كاحلك متورم كثيراً، هل التوى لدى سقوطك؟».

شعرت بانها مصدر ازعاج له واجابت بصوت خافت:

«اجل، لا استطيع المشي».

«هذا ما خيل الي».

قالها باقتضاب ولم يحاول ستر حزمه بالأجوبة الرقيقة. المطر الغزير تحوّل الى ستار من الضباب، وبرزت ساقية مكان الممر، وانقشع الغمام المنخفض وبرزت اشعة شمس باهتة.

تحركت عضلات ادم تحت قميصه المبلل عندما انحنى ليرفعها بين ذراعيه وقد لاح على شفتيه طيف ابتسامة وهو ينظر الى المرأة المتشنجة التي تختلف كلياً عن المرأة الانيقة التي حياها لدى وصولها الى المعرض. شعرها الكستنائي المشوش والملتصق بجبهتها اضفى عليها شكل القنفذ الكريه وجالت عيناه في انحاء جسدها الذي برزت مفاتنه تحت ثوبها الرقيق المبلل الملتصق بها.

تتبعت تامي اتجاه نظراته واعتراها حياء شديد، وحاولت عبثاً ابعاد القماش المبلل عن جسدها.

قال بلهجة جافة:

«اي لغز هي المرأة؟ رأيتك احياناً في ملابس اكثر شفافية من هذه، لماذا هذا الاحتشام المفاجىء؟».

لم تستطع ان تقول له ان عينيه اصبحتا اكثر جرأة، وان شفتيه تبدوان اكثر طيشاً، وان شموخ انفه المستبدّ يثير حنقها... كان الجو بينهما متوتراً دائماً، ولكنها هذه المرة تشعر بان تياراً خفياً من المشاعر تجهل اسمه انتشلها من اعماقها وجعلها اشبه بطفلة مرتبكة. اهو الغضب؟ أهو الحرج؟ اي قوة هائلة تسبب لآدم هذا الاضطراب الداخلي فيكبح جماح عواطفه؟

كان نقلها بين ذراعيه عملاً شاقاً مضنياً. للمرة الاخيرة تشعر بخفقات قلبه العنيفة فألقت برأسها على كتفه لتعانقه عناقاً سرياً حاراً وشدّدت من قبضتها حول عنقه لتربت على بشرته السمراء باصابع مرتعدة. بعد قليل سيصبح اسمها «الليدي فوكس سابقاً»، وهذا الخاطر جعلها تطلق صرخة صغيرة حافلة بالألم.

فقال بقلق:

«ما بك؟».

«لا شيء... خيل الي اني سأعطس».

«يجب ان نسرع لنضعك في حمام ساخن، وتجنباً لأي تأخير، عندما نبلغ ساحة المعرض، سندور حولها الى السيارة، واذا حالفنا الحظ نتسلل من دون ان يرانا احد. ستجد العمتان من يوصلهما بسيارته الى المنزل».

عبء من القلق زال عن كاهل تامي. كان همها الوحيد هو ان تنصرف من دون ان تقع عيناها على بام ثانية. مجرد فكرة اقرارها بالهزيمة وبانتصار منافستها حركت فيها كبرياء آل ماكسويل.

كل شيء تم بحسب المخطط، كما تتم دائماً رغبات آدم. كان الجميع قد لجأوا الى الخيام هرباً من العاصفة، فكان موقف السيارات خالياً الاّ من حارس عجوز شاهد رجلاً اسمر مبللا يلقي بفتاة مبللة

الى داخل السيارة.

اطلق آدم العنان لسيارته في شوارع مهجورة. لم يهدر لحظة واحدة لنقل تامي الى الطابق العلوي وراح ادم يصدر تعليماته الحازمة بينما كان يحملها الى الحمام.

«اذا جلست على هذا المقعد اتستطيعين انتزاع هذه الملابس المبللة بينما اعد لك الحمام؟».

«بالطبع، كاحلي لا يؤلمني كثيراً الآن واظنه قادراً على حملي».

كان ردها رقيقاً جداً.

«ارجو ان يكون هذا درساً لك حتى لا تتجولي في الجبال بمفردك في المستقبل. يمكن تأجيل المحاضرات الى ان تصبحي في حالة تسمح لك بان تفهمي اني عندما اصدر امراً اتوقع تنفيذه. هيا، اخلعي ملابسك».

وبذلك بعث الحياة في حركاتها البطيئة.

«الا اذا كنت بحاجة الى مساعدة مني».

اجابت متلعثمة:

«كلا، شكراً. استطيع ذلك بمفردي».

بدت عليه الحيرة وقال:

«خسارة... سأهبط واعد لك فنجاناً من الشاي، لا تتأخري في الاستحمام».

امضت فترة اطول مما كانت تنوي لأن افكارها كانت مشغولة بتفسير اقواله. تكلّم عن المستقبل. اي مستقبل؟ لا مكان لها هنا في فوكس هول. حالما يتحسن كاحلها ستحزم امتعتها وتعود الى لندن قبل ان يأمرها آدم بالرحيل.

كانت قد انتهت لتوها من الاستحمام عندما عاد ولم تبدر منه حتى نظرة متهورة واحدة. القى عليها نظرة عابرة ومع ذلك اعتراها شعور غريب.

«رائع، لقد جففت نفسك. حملت اليك الشاي ووضعت قربة

من الماء الساخن في فراشك وسأحملك اليه اذا كنت مستعدة».

تولاها احراج شديد فالتقطت عباءتها عن الارض. ثمة نظرات شريرة تتربّص في عينيه ولم يكن في نيتها اثارته.

وقالت بصوت مرتجف:

«شكراً، استطيع ان اتدبر امري بمفردي. يجب الاّ ارفه نفسي اذا كان عليّ الرحيل حالاً الى لندن».

«خطر لي انك ستفكرين بذلك. لا داعي، قررت السماح لك بالبقاء هنا».

كان يجب ان تبتهج بهذا القول، لأنها تتمنى البقاء وتعتبر الحياة جحيماً من دونه. وبدلا من ان تشكره على غفرانه دفعها الحذر الى السؤال:

«لماذا».

هز كتفيه وقال:

«اعتدت على وجودك هنا وقد افتقدك اذ رحلت».

«كما تفتقد قطة صغيرة او عصفوراً غريداً؟».

«لا احد منهما قادر على رفع ضغط دمي».

«احقاً؟».

قالتها وكأنها تنتحب.

«تعني انك تعتبرني جذابة جسدياً وبعد تفكير عميق ارتأيت اني سأكون مريحة لك اكثر من باميلا».

شعرت بالغثيان عندما لم ينكر آدم اتهامها. كان واثقاً جداً منها، ومقتنعاً بأنها طوع بنانه فلم يزعج نفسه بخطب ودها. مجرد افصاحه عن رغبته بالكلام كان كافياً.

بقيت تامي مسيطرة على غضبها الجامح وقالت بحذر شديد:

«هل غفرت لي الخدعة التي مارستها عليك؟ وهل تغاضيت عن كوني زوجة عديمة النفع وعن طباعي المتعجرفة؟».

تحرك بسرعة فائقة بحيث لم يتح لها فرصة التهرب من ذراعيه

اللتين امتدتا اليها وشدتاها الى صدره بوحشية وتمتم بصوت اجش:
«ايتها الصغيرة العنيدة المتعجرفة! ساورتني فكره اعادتك من حيث اتيت، الى الرخاء والتسامح والتحرر من الهموم، ولكن عندما اضمك اليّ بهذا الشكل ويعبق عطرك في انفي ويرتد قدّك المياس بين ذراعي وتتساوى خفقات قلبك وخفقات قلبي، انسى كل جدل ضد ابقائك هنا ولا اتذكر سوى ان خصرك خلق خصيصاً لكي يطوقه ذراعي. كم انت مفرحة عندما تكونين سعيدة وتهبين نفسك بدون تحفظ. لم اعد قادراً على رفض ما عرضته عليّ بسخاء. اريدك زوجة لي يا تامي!».

«اذا كان هذا ما رضيت به مع ماكسويل فان انتمائي اليها يخجلني. كرم فائق منك ان تتغاضى عن مساوئي العديدة وانها لسذاجة منك الظن اني سأقبل تضحيتك. لا يا لورد فوكس، لا اريد البقاء هنا في معاناة وان امضي بقية حياتي ممتنة لك واحمل ضميري الشرف العظيم الذي اسبغه علي زوجي الغفور. تباً لك».

شعرت بغصة في حلقها، غصة غضب وأسى لأن آدم لم يذكر مرة واحدة العبارة التي تجعلها ترتمي عند قدميه... عبارة حب.

وقف لا يأتي حراكاً يحدق في عينيها العسليتين وهو يهضم اهانة رفضها لطلبه، وبعد ان ضاق المكان بالصمت الرهيب سألها:

«ما مدى تأثير ديرك على قرارك هذا؟».

في تلك اللحظة فاتها ما يلمح اليه. بدت شابة صغيرة جدا، تائهه وهي توازن جسمها على قدم واحد لأراحة قدمها من الألم الحاد، وقد برزت وجنتاها المتوهجتان فوق ياقة ثوبها الابيض وفمها يرتجف من الألم.

قالت بصوت مرتجف:

«لا افهم اي شأن لديرك بنا».

كانت تعتبر ان الحمام القديم الطراز ضخماً الى ان اضطجع آدم فيه بقامته المديدة ومنكبيه العريضين وقد برز فكاه، اشبه بأسلافه قبل

خوض المعركة. اقلقتها رنة صوته المتعبة الحزينة بعد ان كانت تتوقع منه سيلا من العبارات اللاذعة.

«قال هاريس انك اتيت الى هنا للتسلية، واني برزت في حياتك عندما ابتدأ نشاطك الاجتماعي يفقد رونقه. كنت مضطربة تبحثين عن سبيل للتحول والهرب من الحياة اليومية الرتيبة فراقت لك فكرة تمضية فترة مع رجل جبلي، والمح لي ان زواجنا لم يكن ضرورياً لانك كنت سترافقينني في اية حال، ولكنه كان يجهل انه لم يكن لديك الخيار تحت ضغطي وضغط والدك. لا شك انه احزنك اصراري على اهتمامي بالمؤهلات، وانك ندمت على زواجك مني عندما ظهر بيني ديرك ليؤكد حنينك الشديد لبيئتك، «قد فاجأتكما تلك الليلة متعانقين».

قالها وكأنه يختنق، ووجدت صعوبة في الاحجام عن ضربه.

اخفض بصره وراح يحرك اصابعه وقد حيرته قوة عاطفته التي لو عادت اليها ذكرى الماضي لدفعت به وهو الرجل الرزين الى التفكير بالعنف، واطبق قبضة يده بعنف.

«لاول مرة في حياتي اشعر بغريزة الرجل البدائي للدفاع عما هو له».

ورماها بنظرة استياء ثم تابع قائلاً:

«حتى في تلك الفترة الوجيزة من الزمن اصبحت اعتبرك من ممتلكاتي، زوجتي، التي يجب الا يجرؤ رجل آخر على ملامستها. امرأتي، التي يجب الاّ تسمح بمثل هذه الالفة».

اصغت تامي اليه صامتة ترتعد، ولكنها ارتدت عند ابدائه الملاحظة الاخيرة وقد حز ذلك في نفسها وشعرت بألم حاد في كاحلها.

قالت وهي تكاد ان تختنق:

«وهل صدقت ذلك عني؟ وأصدرت حكمك علي مستنداً الى دليل قدمه لك رجل حقود، والى تصورك الخاطىء لتصرف بريء

تماماً؟».

واجاب بصوت اجش:

«ليس ذلك فحسب. اليست رغبتك في الرحيل تثبت اتهامات هاريس؟ كنت مرغماً على المجيء بك الى هنا، وكنت انت راغبة في ذلك، ولكنك تصرين الآن على الرحيل مع انني طلبت اليك البقاء».

شعرت بعبارات مريرة حادة تغلي في حلقها. انطلقت الى غرفتها وقد منعها الالم من محاولة شرح ما احست به من اهانة لقوله انه يريدها لغاية في نفسه. آلمها عندما جرت لتخرج الحقيبة من الخزانة وهو الم ربما كان هائلاً في غير هذه الظروف، ولكنه الآن برز من خلال غمامة من الغضب والحياء صرخ بها:

«لن ترحلي!».

انطلق هذا الامر من ورائها، فاستدارت تامي متسلحة بعنفوانها وغضبها لتخوض المعركة.

«اني ذاهبة الى منزلي يا آدم فوكس! عائدة الى حيث الحب والاحترام والى شخص يؤمن بي ويجعل كلمتي فوق كل ما عداها، وهذه مواصفات لن اجدها هنا».

جميلة وهي ثائرة، رمته بنظراتها الحاقدة وقالت:

«للأسف، لم يغم علي امتناناً عندما سمحت لي بالبقاء، ولكن بالرغم من كوني سافلة، عديمة النفع، منحطة الاخلاق فاني اطلب من زوجي ما هو اكثر من تنازل ضاغن. لقد دللتك يا لورد فوكس! عندما اتيت الى هنا كنت مذهولة، ولم ادرك ان وراء مظهرك الفظ تجويفاً فارغاً مكان قلبك

ارتميت عند قدميك ولبيت جميع طلباتك وتحملت كل اهانة وكل صدّ منك على امل ان تبادلني شيئاً من الحب الذي اغدقه عليك. ولكنني مللت الآن، سئمتك وسئمت فوكس هول والمجتمع الريفي الذي يعتبر اللورد فوكس رمزاً للكمال وان كلمته هي القانون. ابق

في جحرك المحروس، ابق متوارياً وراء الجدران الصوانية الدافئة التي لا يمكن للمشاعر الانسانية اختراقها! اقترن بعروس من ثلج وعش سعيداً في لحدك المغلف بالعواطف المكبوتة. باميلا لن تثير فيك هاجس الحب او الغضب وهذا خير ما يناسبك اذ ليس افضل من زوجة فاترة لرجل متحجر».

سهمها الاخير اصاب هدفه. ارتد رأس آدم المتعجرف الى الوراء وكأنه اصيب بضربة مؤلمة، فقام بحركة غاضبة وحاسمة. انقضت قبضتاه القاسيتان على كتفيها وضغطتا عليهما بقسوة ورأت في عينيه بريقاً غريباً، ناراً متأججة وزرقة مخيفة. لم تكن من حاجة الى العبارات التمهيدية. وشدها الى صدره بعنف.

ابتدأ الامر بعناق عقابي فيه كل ما اختزنه رجل قوي العزيمة من حقد على نقطة الضعف لديه. كان عناقاً ساحقاً، كافياً للقضاء على جميع العواطف، غير انه حرك احاسيس عاصفة جامحة. لم يلحظ اي منهما هذا التبدل. فالعناق الذي ابتدأ بعاصفة من الكراهية تحول الى عناق عاطفي حنون وتشبث احدهما بالآخر وكأنهما غريقان تتلاعب بهما الأمواج الهائجة. تعانقا ثم انفصلا ليعودا الى العناق من جديد وفيهما جوع الى اللقاء وقد نسيا العداء والحقد وهما على اجنحة هذه العاطفة الجياشة.

صبت تامي كل ما في قلبها العاشق من عواطف واحاسيس، وسرها الشعور بالسيطرة عليه وادهشها ان تكون همساتها الرقيقة الحنونة قد حولت اللورد المتعجرف الى عاشق مستعطف متوسل. لم تكن بحاجة الى اقناع بأنّ ما يجري هو حلم من صنع خيالها نسجته ساعات طويلة من الحنين الى حدث كهذا، وفيما كان يعانقها بحرارة سمعته يقول بصوت مرتجف:

«احبك يا تامي، ايتها الساحرة الفاتنة. يا الهي! احبك كثيراً، اياك ان تتخلي عني يا تامي. قولي انك ستبقين!».

ازدادت اقتراباً منه وترقرقت عيناها بدموع الفرح وعدم

التصديق:

«لن اتخلى عنك ابداً يا حبيبي، خاصة أني عرفت انك تحبني. ليتك تعلم كم حننت الى سماع هذه الكلمات. انتظرت وابتهلت ولكنني لم اسمع اقرارك الا الآن».

وفجأة، هي التي اصبحت غير واثقة ومتسائلة، تحاول تهدئة نفسها وتركيز تفكيرها:

«امتأكد انت يا آدم؟ ايمكن ان تكون هذه فترة طيش مؤقت لديك؟ اعلم اني اجتذبك ولكن هذا لا يكفي. لا يمكن ان تحب وتكره شخصاً في آن واحد. ماذا لو ندمت فيما بعد على عبارات تفوهت بها وانت في اتون العاطفة؟».

وبحنان فائق جذب رأسها الى كتفه وكبح جماح نفسه وهو يربت على وجهها المضطرب:

«اذا كان شعوري نحوك هو الازدراء فاني ايضا ازدري الطيور المغردة في صباح ربيعي والغمامات السابحة في الفضاء مجتازة القمم الشاهقة، والبحيرات الزرقاء المستكينة بين وديان تحيط الهضاب الخضراء، وجنح الغراب الأسود وتغريد الكروان، والشمس المنسابة بعظمة وراء الصخور صابغة كل صخرة منها بلونها الذهبي، اني اكن الامتنان لكل منها بقدر ما اكن لك من حب، قولي هل هذا يطمئنك؟»

المفروض ان يكون ذلك كافياً، قال لها ان حبه لها يضاهي حبه لبيته وحبه للحياة ومع ذلك بقي جزء صغير منها يرتعش.

دفنت رأسها في كتفه وقالت:

«ولكنك صدقت كل ما قاله ستيف عني».

ردّه الخافت دل على اضطرابه:

«شئت ان اصدق اقواله وحاولت جاهداً ان اقنع نفسي بصدقها».

نظرتها اليه آلمته فأكمل متمهلا:

«كنت اعلم انه ليس من حقي ان ابقيك هنا، فرحت ابحث عن اعذار لكي اعيدك. لا استطيع ان اوفر لك الحياة التي اعتدت عليها، ولا الرفاهية ولا العيش الهنيء ولا الثروة. فانا رجل فقير بالنسبة الى والدك. مع ان طموحاتي كبيرة فاني لا املك املاً في المستقبل بحيث استطيع مضاهاته في النفوذ. لا استطيع ان اوفر لك ما لا تملكين. كرامتي تمنعني من الطلب اليك البقاء زوجة لي. حبي لك دفعني الى هذا التصرف».

انطلقت زفرة كبيرة من اعماقها. كان يجدر بها ان تدرك ذلك. ما كان يجب ان تتعامى عن كل ذلك وهي تعلم مدى اعتزازه بنفسه وعجرفته الموروثة ورغبته في اعطاء ما هو الأفضل.

«يا آدم العذب الرائع المتعجرف! الا تعلم يا اعز حبيب انك الوحيد الذي يستطيع ان يهبني كل ما اتمنى في هذا العالم؟».

بدت عليه الحيرة وقال:

«ما هو الذي تتمنين؟ سأحققه لك حتماً اذا كان باستطاعتي».

التصقت به الى ان اصبحت بمثابة ضلع اضافي من ضلوعه ووقفت على رؤوس اصابعها وهمست في اذنه:

«ارجوك يا بارون فوكس، اني اريد ثلاث بنات وسبعة ابناء»